الطريق إلى أجارتا

عمرو ممدوح

الكاتب: عمرو ممدوح

التدقيق اللغوي: أحمد ننـاوي

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: محمد محسن

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٩٦٠٤

الترقيم الدولي: ٦-١٧-٦٦٨٩-٩٧٧-٩٧٨

كاريزما
للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل : ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥

٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

الطريق إلى أجارتا

رواية

عمرو ممدوح

إهداء

إلى أولئك الذين يحتفظون بالسر الذي ما زال جاثمًا على صدورهم عبر القرون محملين بأثقال الحقيقة.

تسرعت كثيرًا في بدء رحلتك نحو الخلود وقد كنت ما زلت في احتياج إليك (أبي).

ستظلين سراجًا وهَّاجًا يضيء لي الحياة (أمي).

إن كان الحب داء فهذا الذي أدعو الله ألا يشفيني منه (زوجتي).

سيف الدين، وسلمى (أنتما سر الحياة).

عمرو ممدوح

لكي ترى ما أراه وتعي ما أقول يجب أن تزيل عن عينيك كل الحجب وتكشف غطاءك وتضع كل معارفك وأفكارك البالية جانبًا، فما سأخبرك به الآن يفوق كل مداركك ويشعل النيران في كل مؤلفاتك وكتبك.

أنت الآن ملكي أنا وحدي عقلك يذوب بين ثنايا عقلي، فأنا بعد لحظات سأصير أنت وأنت ستكون أنا، فأنا بك وأنت بي لترى وتشعر.

عليك الآن بربط كل أحزمة الأمان بداخلك، فرحلتك هذه قد تكون الأخيرة فلست الأول الذي يسافرها ولكنهم جميعًا ندموا على خوضها، فثبر غور المجهول ليس بميزة ولا بطولة فقد تكون مغامرة ثمنها حياتك نفسها.

كل من حاول مات وأنا حتمًا أنتظر مصيري الذي يقترب بشدة، فدعنا الآن من كل هذا الحديث الذي مر ولنبدأ، فالطريق من الماضي السحيق إلى يومنا هذا طويل جدًا، بل هو أطول من آلاف السنين التي مرت وأكثر بشاعة مما قرأت في كتب التاريخ وأشد إثارة مما تتخيل.

دعنا حتى لا يسرقنا مصيرنا المحتوم نشد رحالنا وننطلق بسرعة البرق، فلتغمض عينيك قليلًا وتضع كف يدك في راحتي ولننطلق عبر سدم التاريخ لترى الحقيقة كاملة، فلمعرفة الحقيقة ثمن باهظ فهل أنت مستعد لتدفعه، فلننطلق.

1

خريف 1942

نظرت بعينيها الزرقاوتين إلى ذلك الجسد العاري المُلقى على الفراش بجوارها، لقد كان يغط في نوم عميق، أزاحت غطاءها الخفيف لتكشف عن قوامها الممشوق ونهديها النافرين، التقطت مفرشًا خفيفًا لفته حول جسدها فزادها إثارة.

ألقت نظرة أخرى لتتأكد من استغراق الرجل في نومه وصوت شخيره يرتفع كخنزير بري، تناولت سيجارة رفيعة أشعلتها سريعًا نفثت دخانها في عمق قبل أن تتجه إلى ملابسها المتناثرة على في أرضية الغرفة تبحث عن شيء ما، سرعان ما التقطت حقيبة نسائية يدوية عبثت بمحتوياتها قليلًا لترتسم على شفتيها ابتسامة ظافرة وهي تخرج منها مدية حادة لمع نصلها رغم الضوء الخافت وعادت لتقترب من وجه الرجل حتى لفحت أنفاسها وجهه ففتح عينيه ليلتقط شفتيها بين شفتيه قبل أن تجحظ عيناه فجأة مع شهقة مكتومة.

انتزعت إيرما مديتها من عنق الرجل لتنفجر نافورة متدفقة من الدماء.

لم تأبه إيرما لذلك الدم وهي تمسح بهدوء نصل مديتها في صدر الجثة العاري وهي تقول ساخرة:

ـ اعذرني يا حبيبي لقد استمتعت حقًّا معك لكن مصلحة الرايخ أهم.

ببرود الثلج فتحت إيرما جريس خزانة الملابس تفرغ محتوياتها بهدوء لدقيقتين قبل أن تتوقف فجأة وهي ممسكة بمفكرة سوداء متوسطة الحجم، قلبت أوراقها سريعًا قبل أن ترتسم على شفتيها تلك الابتسامة الظافرة وتعود مواجهة الرجل وتقول:

ـ حقًّا شكرًا لك.

نظرت نظرة طولية للجسد الرياضي العاري قبل أن تزيح المفرش الذي يواري جسدها ليبدو قوامها الممشوق وبشرتها البيضاء مرة أخرى وتصعد على الجسد الميت وهي تقول:

ـ أنا لم أفعلها مسبقًا لكنك تستحقها كمكافأة!

القاهرة 1990

فندق شعبي بحي العتبة مكون من ثلاثة طوابق وضعت عليه لافتة خشبية متآكلة بفعل الزمن «لوكاندة قصر المدينة».

رغم ازدحام المنطقة المتكدسة بالسكان والمحلات التجارية وورش الأعمال، لكن الصبية استطاعوا أن يخلقوا لنفسهم مجالًا للعب الكرة وسط الشارع!

ومن بعيد ظهر على أول الشارع رجل أشيب الشعر تمامًا طغت الحمرة على بشرته مضفية وسامة زائدة رغم سنوات عمره التي تخطت منتصف العقد الثامن، إلا أنه احتفظ بطول فاره وبنية رياضية سليمة.

انطلق الأطفال فجأة تاركين لعبتهم ليحيطوا بالرجل الذي ابتسم لهم بدوره ونأولهم كيسا بلاستيكيا طبع عليه اسم للمحل الأشهر بالقاهرة جروبي.

في لحظات كان الأطفال قد أفرغوا محتويات الكيس من حلوى رائعة اعتاد الرجل أن يجلبها لهم من أغلى محلات مصر.

انصرف الأطفال بمجرد حصولهم على الحلوى وابتسامة عريضة مرسومة على ذلك الوجه الأحمر لم تفقده وسامته ولا تلك النظرة العجيبة في عينيه!

توقف الرجل عند محال بقالة عتيق محييًا صاحبه:

ـ السلام عليكم يا عم جمال

ابتسم الرجل العجوز بالمحل وقال مُرحبًا:

ـ عليكم السلام ياحاج طارق كيف حالك؟

ابتسم طارق ابتسامة هادئة وقال:

ـ أريد بعض الجبن إذا سمحت.

لم تمض ثلاث دقائق حتى كان طارق ينقد البقال ثمن حاجياته ويخطو بنشاط باتجاه فندق قصر المدينة محييًا شاب ثلاثيني يجلس على مكتب خشبي متهالك قبل أن يصعد السلم متجهًا إلى غرفته على سطوح الفندق الشعبي ليغلق بابها خلفه في إحكام ويضع جانبًا حقيبته الجلدية والكاميرا التي كان يعلقها على صدره.

ومن أسفل مرتبة السرير أخرج مفكرة وقلم وخط بضع كلمات قبل أن يتنهد بعمق ويلقي بحمل جسده على فراشه.

بافاريا شتاء 1942

شقت السيارة المكشوفة ألمانية الصنع ذلك الطريق الريفي الضيق قبل أن يظهر على مد البصر ذلك البناء الضخم ومن حوله بدت كصفائح ذهبية تعكس ضوء الشمس الباهتة كأنما نثر حول ذلك البناء القابع بالريف البافاري عشرات القطع المعدنية.

بعد دقيقتين كانت السيارة تقف أمام بوابة حديدية عملاقة يحيط بها صفان من الصخور الذهبية كانت في الحقيقة هي من تعطي انعكاسًا لأشعة الشمس.

ما أن توقفت السيارة حتى تحركت البوابتان الثقيلتان تصدران صريرًا معدنيًا مزعجًا ليظهر خلفهما جنديان نظرا بتفحص إلى وجه السائق الذي كان أيضًا يرتدي ملابس عسكرية وكذلك الراكب بالمقعد الخلفي، إلا أن ذلك الأخير كان يبدو رفيع الدرجة فما أن

رآه الجنديان حتى ضربا بأحذيتهما الأرض مؤديين التحية وهما يمدان يمناهما إلى الأمام ويقولان في صوت متناغم «هاي هتلر».

لم يأبه سائق السيارة بهما لينطلق بسيارته عبر ممر من الجرانيت يمر عبر حديقة ضخمة تمتد لعشرات المترات قبل أن يستدير ليقف أمام بوابة القصر العتيق.

ترجل الضابط رفيع الدرجة من السيارة ليشد قامته في شموخ وهو يتأبط قبعته العسكرية وفي خطوات عسكرية رتيبة يعتلي الدرج المؤدي إلى البوابة الخشبية الضخمة ذات الطابع القوطي بنقوشها وزخارفها الغامضة ليستنشق كمية كبيرة من الهواء قبل أن يرفع يده ليضرب عدة ضربات رتيبة على الباب.

دلف بخطوات واثقة إلى الداخل دون أن يلمح من قام بفتح البوابة، عدة خطوات إلى الداخل ليسمع صوت يأتي من آخر البهو المتسع الذي امتلأ بعشرات التحف والمنحوتات الأصلية.

ـ مرحبًا سيدي أن الفوهرر بانتظارك.

كان الرجل الذي يتحدث يشير إلى جدار غطى أغلبه برسم عملاق يحمل العلامة النازية الأشهر «الصليب المعكوف» أو «سواستيكا».

كأن الأمر لم يكن غريبًا أنه فيما يبدو سيخترق الآن جدارًا تقدم الضابط بنفس الخطوات الثابتة تجاه الجدار ذي الشارة العملاقة، إلا أن قشعريرة باردة بدأت تسري في جسده جراء قلق بذل مجهودًا خارقًا ليخفيه.

ففي صباح نفس اليوم تلقى رسالة سرية مشفرة تطلب منه الحضور في غضون ساعات إلى هذا المكان لمقابلة الفوهرر نفسه دون إبداء أي أسباب تذكر!

رغم أنه مقاتل خاض الكثير من المعارك وواجه الموت مرات ومرات إلا أن مواجهة الموت لا تقاس بمواجهة ذلك القصير ذي الشارب المضحك خاصة إذا أذنب في جرم ما فلن يتوانى الفوهرر بنفسه عن إطلاق النار على الرأس مباشرة!

هو يعلم جيدًا أنه لم يخطئ وإذا كان أخطأ فما الداعي للمقابلة هنا في «جوتيس جارتن» أو «حديقة الإله».

والذي يعرف جميع ضباط الرايخ أنه مخزن الأسرار!

حيرة كادت تقتله وهو يدلف عبر فجوة قد خلفتها حركة الجدار حول محوره ليجد نفسه يهبط عبر درج لمسافة خمسة طوابق كاملة قبل أن يقوده الممر الضيق إلى باب خشبي صغير طرقه ليسمع من الداخل:

ـ ادخل.

استنشق كمًّا ضخمًا من الهواء ملأ رئتيه قبل أن يضع قبعته فوق رأسه ويشد من قامته ليدير مقبض الباب ليدخل فيشهق على الرغم منه.

مطار القاهرة - صيف 2017

بحقيبة متوسطة الحجم خرجت سارة من صالة الوصول بمطار القاهرة وخلفها شعرها الأصفر يتطاير من جراء بعض الهواء الساخن في مثل هذا التوقيت من العام، ونظارتها السوداء الكبيرة تخفي ثلثي وجهها.

التفتت يمينما ويسارا كأنها تبحث عن شيء ما أو.

اقترب منها شاب طويل القامة أسود الشعر حنطي البشرة هادئ الملامح قائلًا:

ـ مرحبًا عزيزتي سارة لقد أضاءت مصر بقدومك.

كانت ابتسامة ودودة ترتسم على شفتي الشاب ذي الثلاثون عامًا، إلا أن سارة استقبلته بابتسامة باهتة فهي لم تعتد بعد حرارة الطقس في يوليو.

أشار الشاب إلى سيارة رياضية أنيقة رغم أنها ليست ماركتها الرخيصة، حمل الحقيبة عنها ليضعها بصندوق السيارة قبل أن يتخذ مجلسه خلف المقود لينطلق في شوارع القاهرة لدقائق قبل أن يلتفت إلى سارة قائلًا:

ـ هل يمكنك إخباري عن مهمتك هنا؟

نظرت إليه شذرا وقالت بعد زفرة حارة:

ـ إنه أمر يطول شرحه لكنني عبثا لم أستطع التواصل مع أحد هنا غيرك يا معتز بحكم زمالتنا القديمة بهارفرد، وهذا لا يعني بالطبع أن تسأل كثيرًا.

امتعض وجه معتز من تلك الطريقة في الحديث التي انتهجتها سارة، رغم أنها هي من طلبت منه المساندة في مهمة مهنية وهذا في حد ذاته غريب فهي صحفية ألمانية من أصول مصرية وهو أستاذ في التاريخ بكلية الأداب، ولهذا تعجب من مطلبها، واشتد العجب أكثر بطريقتها في الحديث مما جعله يبتلع لسانه تمامًا لدقائق طويلة قبل أن تقول له:

ـ هل تعرف أي شخص يمكنه تسهيل مهمة في قسم شرطة؟

جحظت عينا معتز ونظر إليها ببلاهة للحظات قبل أن يقول وهو يضغط مكابح سيارته بعنف لتتوقف في منتصف الطريق وسط ضجيج آلات تنبيه السائقين الذي توقف أمامهم فجأة، فنظرت إليه مندهشة وقالت:

ـ لماذا توقفت بهذه الطريقة الفجة؟!

ـ اسمعيني جيدًا عزيزتي سارة، عندما تلقيت طلبك ورغم صيغة رسالتك التي بدت بصيغة الأمر رحبت بهذا من قبيل أخلاقي الشرقية، وها أنتي تتحدثين بعنجهية وغطرسة مقيتة ولقد التزمت الصمت أيضًا، لكن يجب الآن أن أعرف ما طبيعة مهمتك تحديدًا هنا خاصة وانك تطلبين الاتصال بالشرطة وهذا أمر خطير خلال هذه الفترة الراهنة، فيجب قبل أن نتحرك خطوة واحدة أن أفهم كل شيء وإلا فلتعتبري نفسك مجرد ضيفة في بلدي وينتهي كل شيء.

نظرت إليه نظرة غريبة ودون أن تنبس ببنت شفة فتحت باب السيارة وقالت:

ـ أعتقد لا داعي حتى للضيافة.

خريف1942

منتصف الليل

مكان مجهول بالقرب من ميونخ

قاعة مستديرة تتوسطها منصة لها شكل غريب يبدو أنها مذبح، تضيىء القاعة بثلاثة عشر مشعل على شكل دائري.

في أرضية القاعة نجمة داوود الشهيرة ويتوسطها رمز سواستيكا أو الصليب المعقوف الشهير وحولها تراصت عدد من المقاعد وعليها رجال ذات ملابس مميزة عبارة عن شال أسود لامع يغطي الرأس منسدلا إلى الركبتين.

كانوا اثنا عشر رجلًا حول النجمة أما الرجل الثالث عشر كان يجلس على مقعد يرتفع سنتيمترات عن الأرض قبالة المذبح يبدو من ملابسه التي اختلفت قليلًا بنقوشها ولونها الأحمر الدموي أنه القائد للمجموعة.

بدأ الرجل على المذبح قائلًا:

ـ بالطبع جميعكم تتسائلون عن سبب هذا الاجتماع رغم مرور سنوات طويلة على اجتماع لجماعتنا هنا؟!

قال أحد الرجال:

ـ الأغرب أن يتم هذا الاجتماع دون قداسة الأفاريل نفسه!

قال زعيمهم:

ـ قداسته معنا بروحه وقدراته التي يعلمها الجميع وهذا الاجتماع المقدس بعلمه وأوامره شخصيا وأنتم جميعًا رجاله ولهذا توقفت اجتماعاتنا السرية منذ الوصول إلى السلطة وبداية تحقيق حلمنا العالمي.

ـ إذا كنا قد حققنا أهدافنا فلماذا نخاطر الآن بمثل هذا التجمع؟!

قالها رجل آخر وقد بدا متوترًا قليلًا، فنظر إليه زعيمهم قائلًا:

ـ سوف أنقل لكم الآن كل شيء ولكن دعوني أوضح أمرًا مهمًا، أولًا ما ستعلمونه الآن افتضاحه ثمنه أرواحنا جميعًا وكذلك فشله.

قال أحدهم ساخرًا:

ـ وما الجديد فأرواحنا على أكفنا منذ البداية!

رمقه الرجل على المذبح بنظرة نارية وقال:

ـ إيماننا بأفاريل كبير وأرواحنا بخسة في مقابل هدفنا الأسمى.

ساد الصمت لحظات قبل أن يستدرج الرجل قائلًا:

ـ لقد كلفني الفوهرر أن أبلغكم أنه يريد قلب موازين العالم.

قال الرجل الأول:

ـ نحن بالفعل نمتلك العديد من الأسلحة التي يجهلها العدو أو لا يمتلك مثلها مثل دبابات الألغام صغيرة الحجم ومدفعية السكك الحديدية و.

قاطعه أحد الرجال قائلًا:

ـ تلك الأخيرة خرجت من الخدمة فطيران العدو يستهدفها ببساطة.

كاد الأول أن يتحدث إلا أن الزعيم قاطعهم قائلًا:

ـ ليس هذا ما يتحدث عنه الفوهرر وإلا ما كان يجب علينا كل هذه المجازفة باجتماعنا.

قال أحد الرجال وكان صارم الملامح أجش الصوت:

ـ هل تقصد أسلحة نووية مثلا؟!

ابتسم الكاهن قائلًا:

ـ بل سر أكثر خطورة، لا يمتلكه سوى اليهود

قال رجل في منتصف العقد الخامس وهو يبتسم:

ـ هل تقصد ما بتلك المفكرة التي جلبتها الممرضة الشقراء من ذلك اليهودي الذي فتكت به؟

ـ تمامًا أن الفوهرر نفسه مهتم بذلك الشيء الذي يمتلكونه.

قال الأول:

ـ لكننا لم نصل إلى شيء حتى الآن رغم أعداد اليهود المجتمعة لدينا بالمعسكرات!

قال الكاهن بحماسة شديدة:

ـ هذا بالضبط ما يريده الفوهرر أن نصل إلى هذا السر، والطريقة الوحيدة الآن في أيدي الضابط الشاب رودلف ايخمان، كما أن خطته أي الفوهرر تحتوي شق آخر يقع في يد جوزيف مينيغل ومساعده أربيرت هايم.

تبادل الجميع النظرات في دهشة عندما ذكر الكاهن هذين الاسمين تحديدًا، فهما اسمان كفيلان بإثارة القشعريرة في جسد أكثر الرجال قسوة.

مصر 2017 - جهة أمنية

عبر ممرات متشعبة سار فريد النقاش بقامته الفارهة وحلته الرمادية الرسمية، فبدت عضلاته المفتولة توحي بأنه أحد رجال الكوماندوز، كان وجهه صارمًا رغم وسامته بشعره البني القصير.

أمام إحدى الغرف التي انفردت بمكانها مبتعدة عن عشرات الحجرات التي امتلأت بها ردهات المبنى الأمني، توقف فريد وشد من قامته ونزع عن عينيه نظارته السوداء المهيبة وطرق الباب عدة طرقات قبل أن يسمع من الداخل:

ـ تفضل يا فريد.

أدار رتاج الباب ودخل ليجد نفسه في حجرة مستطيلة واسعة في صدرها مكتب يجلس عليه رئيس الجهاز وأمامه مقعدان على كل منهما جلس رجل خمسيني يبدو أنهما شخصيات رفيعة المستوى.

الرائد فريد النقاش...ضابط عمليات خاصة وانضم إلينا منذ عدة أشهر أثبت خلالها تفوق ملحوظًا.

قال هذه المقدمة رئيس الجهاز قبل أن يشير إلى الجالسين أمامه قائلًا:

ـ اللواء عدنان من المخابرات العامة.

كان يشير إلى الرجل على اليسار، وهو رجلفي حدود العقد السادس صارم الملامح اصلع الراس كث الحاجبين معقودهما.

هز فريد رأسه محييًا وهو ما زال واقفًا أمامهم، في حين أشار الرئيس إلى الرجل الآخر قائلًا:

ـ السيد عبد الرحمن دبلوماسي مصري ومتعاون مع الجهات الأمنية.

كان عبد الرحمن بشوش الوجه منتفخ الأوداج يزين أسفل أنفه شاربان أنيقان وعلى عينيه نظارة طبية أنيقة.

أشار الرئيس إلى الجانب الأيسر من الحجرة باتجاه حجرة طولية ملحقة أعدت للاجتماعات لا يفصلها عن مكتب الرئيس سوى أرج أنيق، احتوت طاولة بيضاوية وعدة مقاعد خشبية وثيرة.

فهم الجميع الإشارة فنهض الرجلان بصمت يتبعان الرئيس وخلفهما فريد الذي بدا هادئًا رغم كل التسؤلات إلى تعصف برأسه عن سبب الاستدعاء المفاجئ من رئيسه عبر هاتفه الشخصي مما يعني أن الأمر له أهمية خاصة، وإلا كان يمكن لرئيسه استدعاؤه عبر هاتف مكتبه!

سرعان ما اتخذ الرئيس مجلسه لرأس الطاولة وعلى يمينه اللواء عدنان ويساره السيد عبد الرحمن أما فريد فقد جلس في مقابلة رئيسه كما أشار له الأخير.

نظر الرئيس إلى عبد الرحمن قائلًا:

- يمكنك البدء من جديد سيد عبد الرحمن.

اعتدل عبد الرحمن في جلسته وعدل من نظارته وقال:

- لقد لفت انتباهنا في الولايات المتحدة تحركات غريبة لمركز «سيمون فيزنتال» وهو مركز معروف بتوجهاته رغم رفع راية حقوق الإنسان وشعاراته السلمية، وكنت قد أبلغت منذ مدة القيادات عبر معلومات قد جمعتها عن خطورة هذا المركز، وبناء عليه وضعت بعض قياداته تحت المراقبة الدقيقة، وكذلك مراقبة مركزه الرئيسي بكاليفورنيا، وهذا المركز لمن لا يعرفه اتخذ اسمه تيمنا باليهودي الألماني سيمون فيزنتال وهو واحد من الذين نجوا من محارق الهولوكست النازية، لكن ما ميز الرجل هو قصصه التي نشرها عن محارق النازية ضد اليهود حتى اتهمه البعض بالمبالغة، بل وصل به الأمر وقد عمل بالسياسة بالنمسا اتهامه لعدة شخصيات مهمة هناك بالنازية، لكنه تسبب بالحرج لنفسه بعد تبرئة بعض الشخصيات من هذه التهم، لكنه لم يتراجع يومًا عن عدائه للنازية والنازيين ونشر قصصه عن التعذيب داخل معسكرات الموت النازية، حتى توفي ودفن في إسرائيل.

أما المركز الذي تأسس على اسمه فكان هدفه الأول هو مطاردة الضباط النازين الفارين من محاكم الحلفاء، ومع الزمن أصبح الهدف المعلن فهي تدّعي أنها منظمة لحقوق الإنسان ومواجهة معاداة السامية والكراهية والإرهاب، وتعزيز حقوق الإنسان وكرامته، إلى جانب وقوفها مع «إسرائيل» والدفاع عن سلامة اليهود في جميع أنحاء العالم، وتعليم دروس المحرقة للأجيال القادمة، وبلغة أدق، فإن مركز «سيمون فيزينتال» هو من رصد مبلغ ١٠٥ مليون دولار لبناء ما أطلق عليه «متحف التسامح» على قبور وأضرحة العديد من الشهداء والأولياء والصدّيقين في مقبرة مأمن الله الإسلامية في مدينة القدس، وساهم في تشويه التاريخ الإنساني وتهويد معالم القدس.

هنا تدخل الرئيس مقاطعًا للرجل:

ـ أعتقد أن هذه المقدمة الطويلة كافية، دعنا نشرح للسادة صلب الموضوع؟

تنحنح عبد الرحمن حرجًا وقد احمرت وجنتيه فلقد شعر بأنه أطال الحديث أكثر مما يجب، قبل أن يقول:

ـ منذ سنتين تقريبًا رصدنا تحركات غامضة لصحفية ألمانية من أصول مصرية تعمل صحفية متعاونة مع النيويورك تايمز وعلى علاقة وطيدة بمنظمة سيمون وكانت حجتها أنها تعمل على موضوع صحفي متعلق بالضباط النازيين الذين اختفوا تمامًا منذ منتصف خمسينات القرن المنصرم، في

البداية لم يكن الأمر ذا أهمية حتى رصدنا خلال رحلاتها المختلفة التي شملت عدة دول دار الشبهات حول هجرة هؤلاء الضباط إليها، كما أنها كانت أكثر من نشيطة في الغوص داخل الملفات الأرشيفية ولسبب ما كانت كل الأبواب مفتوحة لها على مصراعيها حتى تلك الملفات بالغة السرية!

إلى هنا والأمر لم يكن يتخطى كونها مغامرة صحفية خاصة أن الصحفية من أصل مصري يهودي، لكن الأمر اختلف تمامًا عندما استطعنا رصد بعض أبحاثها وتحديد على وجه الدقة هدفها أنه الطبيب الألماني أريبرت هايم! وهنا كان الأمر مختلف تمامًا فللأمر علاقة بمصر، وبالفعل رصدت تستعد لدخول مصر.

هنا تدخل اللواء عدنان قائلًا:

ـ عندما أبلغنا السيد عبد الرحمن بالأمر كنا بانتظارها وبالفعل وصلت أمس إلى القاهرة، وهنا التقت بشاب مصري أستاذ للتاريخ بالجامعة اسمه معتز السخاوي، وبالتحري عنه اكتشفنا أنهما كانا على علاقة وطيدة أثناء دراستهما بهارفرد، لكن العجيب أنهما افترقا في منتصف الطريق من المطار إلى الفندق الذي تسكنه لسبب غامض.

تنحنح فريد حرجًا قبل أن يقاطع اللواء قائلًا:

ـ كل هذا جيد لكنني ما زلت أجهل سبب القلق من كل هذا وعلاقة مصر حتى بالنازية؟!

قال الرئيس:

ـ سأخبرك بكل شيء.

وبدأ حديثه وحدقتا فريد تتسعان، فما كان يسمعه مريع بحق ولا يمكن تخيله مطلقًا.

بافاريا 1942

دلف الضابط إلى غرفة الاجتماعات السرية بقبو القصر العتيق وهو يقاوم ذلك التوتر الشديد الذي ينتابه فلقاء الفوهرر بنفسه شيء شديد الحساسية خاصة مع من هم مثله!

كانت المفاجأة شديدة وهو يرى أمامه طاولة مستديرة ضخمة تناثرت عليها مئات الأوراق وبعض الكتب، كما أن حال باقي الغرفة لم يختلف كثيرًا عشرات الملفات متناثرة ما بين عدة أرفف وأرضية المكان البازلتية الباردة.

كل هذا لم يكن غريبا، الغريب في الأمر هو هذه الفوضى مع وجود هؤلاء الرجال، لقد كان يجلس قبالته مباشرة رجل قصير القامة ذو شاربين صغيرين وخصلة شعر تسقط فوق حاجبه الأيسر متجهة إلى الأيمن، لم يكن من الصعب التعرف على الرجل الأهم في ألمانيا بل في العالم كله أنه الفوهرر أودلف هتلر قائد الرايخ الثالث الألماني!

لم تكن المرة الأولى التي تقع عينا الضابط على ملهمه بل رآه في مناسبات عدة ولكن من على مسافات بعيدة وهذه هي المرة الأولى التي يكون بهذا القرب منه!

على يسار هتلر كان يجلس الرجل الثاني في الرايخ أنه رودلف هيس وعلى يمين هتلر جلس سبير ألبرت مستشار هتلر والمسؤول عن التسليح فهو رفيق لهتلر منذ ١٩٣٥ هو مهندس معروف فمن لا يعرف صاحب التصاميم الشهيرة للدعاية النازية والتي جعلت ضابطنا هنا الآن ضمن الرايخ الثالث!

لكن ما جعل الضابط يرتجف فجأة هي تلك النظرة الفاحصة التي تلقاها من هيملر، أنه هاينريش هملر الرجل الأقوى والأشرس أنه قائد القوة الخاصة المعروفة ب س.س والتي أوكل إليها حماية هتلر شخصيا، بالإضافة إلى ما يدور حوله من دمويو مفرطة وعمليات إبادة جماعية كان الجستابوا خلفها وليست عملية السكاكين الطويلة ببعيدة والتي آباد هيملر خلالها القوة الأكبر والأشرس المعروفة بـ AS والتخلص من قائدها رويهم!

كان الرجل الخامس هادئًا وعلى وجهه ابتسامة بعكس الجميع الذين اكتست وجوههم بالصرامة ولكن الضابط لم يعرفه.

تلعثم الضابط وهو يؤدي التحية العسكرية وبطرف عينيه يلمح مسدس ضخم على الطاولة قبالة هتلر مباشرة، حاول هتلر أن يبدو ودودًا على غير طبيعته وهو يقول:

ـ اقترب يا أيخمان.

تقدم الضابط إيخمان بخطى حاول أن تكون ثابتة ولكن توتره ازداد ورجفة ضربت جميع أوصاله فجأة وهو يسمع صوت هيملر يقول:

ـ أودلف إيخمان مارس ١٩٠٦ ضابط بالقوات الخاصة ss قام بزيارة فلسطين ودراسة جدوى تهجير اليهود من ألمانيا، لكنه فشل في الوصول فاتجه إلى القاهرة، وكان له دور فعال فيما آل إليه الحال الآن.

شعر إيخمان بأنفاسه تتلاحق بعد هذا التقرير المقتضب الذي سمعه بصوت القاتل الألماني الأشرس، إلا أن صوت هتلر الذي بدا هادئًا بعث في جسده بعض الهدوء وهو يقول له:

ـ اجلس يا إيخمان.

دون تردد أسقط إيخمان جسده في المقعد الوحيد الفارغ وهو يحاول ألا يتفحص وجوه من حوله، إلا أن تلك الابتسامة العجيبة على وجه الرجل الغامض دفعته للنظر إلى وجهه الأحمر وشعره البني القصير، رغم وسامته إلا أن نظراته كانت مريبة بالإضافة إلى أنه أصغر الحضور سنًا، ابتسم الفوهرر عندما لاحظ تلك النظرة فقال:

ـ أقدم لك دكتور مينغيلي.

ارتجفت أوصال إيخمان فجأة عند سماعه هذا الاسم، لم يكن الاسم بغريب رغم أن ملامح صاحبه الذي يراها للمرة الأولى لا تعطي ذلك الانطباع التي رسمته القصص المنتشرة عن طبيب المعسكرات أو كما يسمونه عزرائيل معسكرات الموت!

ورغم خدمة الاثنان في القوات الخاصة إلا أنهما لم يتقابلا، كاد إيخمان أن يصرخ متسائلًا «هل أنت حقًّا ملاك الموت النازي؟»

لكنه للمرة المليون خلال دقائق معدودة يحاول التماسك وهو يهز رأسه محييًا مينجيل، ثم التفت إلى قائده منتظرا سماع سبب استدعائه في هذا المكان السري الغامض وبحضور هؤلاء؟

ساد الصمت لحظات قبل أن يلتفت هتلر إلى إيخمان قائلًا بشكل مفاجئ:

ـ هل أنت مخلص للفوهلر والرايخ؟

احتقن وجه الضابط المائل إلى إلى الحنطي بعكس جميع الحضور ذو الملامح الجيرمانية الصرفة، وابتلع لعابه بصعوبة وقال بصوت قد تحشرج بفعل الصدمة وعينه تلقي نظرة سريعة على المسدس الضخم أمام هتلر:

ـ بكل تأكيد سيدي.

أطال هتلر النظر بعينيه الضيقتين إلى وجه إيخمان للحظات مرت على الأخير كأنها دهر كامل قبل أن يتحدث الفوهرر قائلًا:

ـ لديك مهمة خطيرة لصالح المباديء النازية العظيمة.

تنفس إيخمان الصعداء فجأة وقال بصوت بدا متهدجًا من شدة الانفعال:

ـ كلي فداء لهتلر؟

ضحك الأخير ثم نظر إلى إلى هيملر قائلًا:

ـ ابدأ أنت.

اعتدل هيملر في مقعده وقال:

ـ اسمع أيها الضابط إيخمان كلنا يعلم ما عانيته في طفولتك بسبب لون بشرتك وملامحك الشرقية، فكان الرفاق ينعتونك باليهودي بسبب ذلك؟

جحظت عينا إيخمان فزعًا وهو يتذكر تلك الأيام التي كاد ينساها أو هو ظن ذلك!

تفحصه هيملر ذلك الثعبان وهو يعلم جيدًا ما يدور بخلد الضابط الشاب، قبل أن يردف قائلًا:

ـ لا تقلق كلنا يعلم أن دماءك نقية وأعتقد أنه كما كان لونك سبب تعاستك يومًا فأنت هنا اليوم لتنال به أسباب الشرف والترقي.

قال إيخمان متعجبًا من تلك المقدمة الطويلة:

ـ أعذرني سيدي لكنني لا أفهم شيئا؟!

ابتسم هملر للمرة الأولى وقال:

ـ اهدأ أيها الضابط أنت على وشك تغيير واقع الحرب كلها بل التاريخ كله.

ـ أوه يا هملر لقد حطمت أعصاب الرجل!

قالها الجالس على يمين هتلر سبير ألبرت وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، في حين استدرج هملر حديثه قائلًا:

- كان لموضوع اتهامك باليهودي وملامحك الشرقية السبب الرئيسي في اقترابك بشكل أو بآخر من المجتمع اليهودي المغلق، وكان هذا سبب رئيسي في تكليفك بملف التهجير سابقا، لكن الآن مطلوب منك استغلال هذا القرب للحصول على شيء يمتلكه اليهود ونحتاج علاقاتك للوصول إليه.

قال إيخمان وقد بدأت ملامح المهمة تضح:

- وما هذا الشيء تحديدًا؟

هنا تدخل الشاب مينجيل قائلًا ولازالت ابتسامته التي أصبحت مستفذة:

- في معسكر أوشيفتز ومن بين مئات الغجر الذين تم جمعهم هناك كان أحد فئراني للتجارب.

مع هذه الجملة الأخيرة سرت قشعريرة باردة في جسد أيخمان، فهو يعلم جيدًا كما يعلم الجميع أن هذا الطبيب المجنون يجري تجاربه المتوحشة على نزلاء المعسكرات أو بالأصح السجون النازية دون رحمة أو شفقة، وخاصة ما أثير حوله من تجارب خاصة على الأطفال التوائم تحديدًا.

قاطع تلك الأفكار الفظيعة صوت مينجيل المرح المتفاخر وهو يستدرج قائلًا:

- في محاولة من الإفلات من مصيره أخبرني بأن لدى اليهود شيء خطير قد يقلب كل موازين القوى وأن اليهود سيستخدمونه ضد الرايخ.

قاطع استرساله هتلر الذي اكتسى صوته بالحدة:

ـ وبطريقة ما حصلت مواطنة ألمانية مخلصة على مفكرة أحد الأطباء اليهود تشير أيضًا إلى نفس الشيء مما دفعنا للتيقن أن ثمة أمر يرفع من أسهم مخططنا الأعظم.

كان حديث غاية في الخطورة وإيخمان يتطلع إلى الوجوه في صمت قبل أن يستنشق كمية من الهواء ويقول:

ـ وما هذا الشيء؟

ـ هذا ما ستعرفه حالا.

وبدأ كبار الرايخ يشرحون له مهمته وفاهه أخذ في الاتساع وضربات قلبه تتسارع حتى صارت كطبول حرب، لكنها حرب من نوع مختلف، مختلف.

القاهرة نهاية 1991

بملابسه الرياضية وقبعته السوداء التي تكاد لا تفارق رأسه، اقترب الحاج طارق من تمثال أبى الهول الشهير، رافعًا كاميرته التي لا تفارقه أيضًا، ليلتقط عدة صور لهذا المعلم الأثري الرائع، قبل أن يتجه عبر الطريق الممهد صاعدا باتجاه الهرم الأكبر وعيناه شاخصة تجاه هذا المبنى الأعظم على مر العصور ويداه تضغط زر كاميرته ملتقطا العديد من اللقطات قبل أن يختار صخرة متوسطة الحجم في مقابلة الهرم، ليستريح من تلك الجولة

ـ هل أصابتك حمة السنون يا صديقي؟

لم يكن الصوت مفاجئًا لطارق فقط التفت إلى صاحب الصوت وعلى شفتيه ابتسامة وهو يجيب قائلًا:

ـ لقد أصبت من الكبر عتيًا كما يقول القرآن يا صديقي.

ـ كان بالقرب منه يقف شاب أجنبي ذو شعر اشقر وعينان زرقاوتان فاره الطول يحمل خلف ظهره حقيبة رحلات وآلة تصوير معلقة على صدره.

ابتسم الشاب ذو النيف والثلاثين عامًا وقال:

ـ هل ما زلت تصر على أن تكمل؟

تنهد طارق وقال:

ـ يا روديغر لم يعد في العمر الكثير، فلماذا تصر أن أضيع كل ما كان؟

التمعت عيني روديغر فبدا أنها دمعة تحاول التسلل من عينيه إلا أنه نجح في منعها وقال:

ـ لقد تركوك وحيدًا وذهبوا جميعًا فلماذا تصر على البقاء؟

ابتسم طارق وتتابع بوز حذائه الرياضي قبل أن يقول:

ـ لست الوحيد فنحن كثيرون لكن جميعهم نسوا أو تناسوا وشغلتهم الحياة، أما أنا فلا يمكنني أن أترك ثلاثين عامًا بهذه البساطة.

زفر الشاب روديغر بعمق وقال:

ـ كم وددت أن خبرني بسرك وما سر حبك لهذه المنطقة فتصر على لقاءنا هنا، لكنني أعلم أنك لن تجيبني أبدًا.

ضحك طارق وقال:

ـ الا يكفيك أنك تقف في قدس أقداس الحضارة الإنسانية؟!

قال روديغر ممتعضا:

ـ كانت يا عزيزي كانت.

ـ بل ستظل هي مفتاح كل شيء

ـ حسنًا أنت لا تريد إخباري بالحقيقة!

ضحك طارق وقال:

ـ سأخبرك بالتأكيد ولكن لم يحن الوقت بعد.

ثم ربت على كتف االشاب الذي جلس بجواره وقال مستدرجًا:

ـ صدقني هذا افضل للجميع.

هز روديغر رأسه معلنا استسلامه للعجوز قبل أن يقول وهو يناول طارق مظروف ضخم:

ـ لقد اتيتك بهذه مؤقتا.

مد طارق يده متأولا لفافة متوسطة، فابتسم الشاب وهو يشير إلى الخاتم المصنوع من الذهب في خنصر اليد اليمنى لطارق قائلًا:

ـ أما زلت تحتفظ بهذا الخاتم الغريب؟!

نظر طارق إلى خاتمه وقال:

ـ إنه صناعة يديوية من خان الخليلي من رحاب مباركة من رحاب سيدي الحسين ومحلى بحجر من العقيق اليماني الرائع مصنوع من الذهب رغم أنه محرم لدى المسلمين!

ـ سيدك الحسين؟!

ـ هل نسيت إنني مسلم؟

صمت الشاب وكأنه لم يجد ما يقوله قبل أن يردف طارق مديرًا دفة الحديث:

ـ ألن تأتي لزيارتي يومًا بفندق قصر المدينة؟

ضحك روديغر وقال:

ـ أعتقد أن قطع صلتنا أيسر من تكرار هذه التجربة المريرة يا خواجة طارق!

ضحكا بشدة على تلك الذكرى العجيبة، قبل أن يسير كل منهما في اتجاه وكانهما لم يعرفا بعضهما يومًا.

الإسكندرية 1942

على شواطئ الإسكندرية كانت ترسو سفينة عملاقة محملة بالمئات من الأوربيين الفارين من ويلات القصف الألماني يهبطون بأمتعتهم على رصيف الميناء الهادئ بملابسهم الرثة وأمتعتهم القليلة.

ومن بين هذه الحشود برز شخص وحيد بدا مهندم الثياب هادئ الملامح ملامحه شرقية، جاب بناظريه على الرصيف حتى توقفت عيناه على شخص نحيل الوجه مدبب الأنف يرتدي عوينات طبية مستديرة ومعطف داكن، كانت ملامحه متوترة وازداد اضطرابه مع مرور عدد من الجنود الإنجليز بقبعاتهم المستديرة وثيتبهم الكاكي.

بدت ابتسامة هادئة على وجه الزائر المهندم وهو يغمغم قائلًا:

ـ يالا جبن اليهود.

اقترب من الرجل اليهودي الذي حاول أن يبتسم مرحبًا لكنها كانت ابتسامة شاحبة مثل وجهه تمامًا.

تصافحا سريعًا وكان يبدو أن الاثنين في عجلة من أمرهما.

ماهي سوى دقائق معدودة استغل اليهودي علاقاته داخل منطقة الجمارك ليخرج مع صاحبه ويستقلان سيارة بويك يجوبان شوارع الإسكندرية قبل أن ينظر إيخمان الضابط الألماني إلى اليهودي قائلًا:

- إن شوارع الإسكندرية ما زالت الأجمل على الإطلاق يا كاستنر.

نظر إليه الأخير من أسفل نظارته وقال بتململ:

- لكنها تكاد تحترق يا أدون إيشمان!

غمز إيخمان بعينه وعلى شفتيه ابتسامة ذات مغزى وقال:

- بل ربما تتحول إلى نقطة مهمة في مسار البشرية كلها.

امتعض وجه كاستنر قبل أن يقول بلهجة عصبية:

- سيدي أعلم جيدًا أنني وأبناء جلدتي من اليهود ندين لك بخدمة، ولكن أنت الآن بين براثن ألد أعدائكم ولن يحول بينهم وبينك أي حائل هنا، ومع ذلك جازفت وأتيت طالبا لقائي ورغم أنني لا أعلم كيف وصلت إلى هنا؟ لكن ما أعلمه جيدًا أن الأمر لن يطول قبل اكتشاف الإنجليز لوجودك على أرض خاضعة لسطوتهم.

ضحك إيخمان ساخرًا وقال:

- أعتقد يا كاستنر أن مهمتي لن تطول بهذا القدر.

ثم غمز بعينه قائلًا:

ـ وهذا يعتمد بالطبع على عرفانك بالجميل.

توقفت السيارة في هذه اللحظة أمام مبنى بسيط على واجهته وضعت لوحة كتبت باللغتين العربية والإنجليزية تشير إلى أنه نزل لامرأة يونانية «لوكاندة ماريا».

دلف الإثنان بهدوء إلى بهو مربع نظيف رغم أثاثه المتهالك وعلى مكتب موضوع على أحد الجوانب جلست امرأة يونانية سمينة ترتدي فستانًا بكم قصير فبدا ذراعيها كأنهما هراوتين.

اقترب منها كاستنر فرحبت به مبتسمة وهي تقول بعربية مهترئة:

ـ أوه عزيزي كاستنر اليهودي اللئيم منذ متى لم تزرني؟!

ابتسم كاستنر وقال مداعبا:

ـ حبيبتي ماريا كم اشتقت إليكي.

كادت أن تكمل حديثها إلا أنها لمحت إيخمان الذي بدا هادئًا فقالت:

ـ من هذا الشاب؟!

أشار كاستنر للأخير ليقترب والأول يقول:

ـ شيمون ابن شقيقتي قادم من أوروبا حالًا فعرضت عليه أن ينزل في أفخم أوتيلات الإسكندرية.

ضحكت ماريا حتى اهتز جسدها بشدة وهي تتناول مفتاحًا من لوحة حوت العديد من المفاتيح ونأولتها لصبي كان قد اقترب من توه.

قادهما الصبي إلى حجرة ضيقة بها سرير صغير وخزانة ملابس صغيرة جدا.

نفحه كاستنر قطعة نقدية قبل أن يغادر الصبي فنظر إلى إيخمان قائلًا:

ـ لا يمكننا الحديث هنا سأمر عليك بعد ساعة لآخذك في جولة بالسيارة.

هز إيخمان رأسه قبل أن يقول:

ـ هل هذه المرأة مأمونة الجانب؟

ابتسم كاستنر وقال:

ـ ماريا لا تقلق أنها تثق بي كما أن الإنجليز يثقون بها.

بدا الارتياح على وجه ايخمان، انصرف كاستنر بهدوء تاركا الأول خلفه الذي اتجه بدوره إلى شرفة عملاقة وهو يشعل سيجارته وينفث دخانها بعمق وذهنه كله منصب على مهمته الغريبة.

وبعد الساعة تمامًا كان كاستنر في بهو النزل الصغير يتجاذب اطراف الحديث مع ماريا، عندما لمح الألماني يقترب منه فابتسم محييًا ماريا قبل أن ينطلقا.

توقف كاستنر بالقرب من عمود السواري الشهير قبل أن يترجلا من السيارة، وكاستنر يشير إلى العمود الجرانيتي الشاهق قائلًا:

ـ هل ترى عظمة هذا البلد، أنك يا عزيزي تقف مباشرة أمام عمود السواري الشهير وهو عمود روماني ويعد من أشهر المعالم الأثرية فيها. أقيم فوق تل باب سدرة بين

منطقة مدافن المسلمين الحالية والمعروفة باسم مدافن العمود وبين هضبة كوم الشقافة الأثرية. ويصل طوله إلى حوالي ٢٧ مترًا ومصنوع من حجر الغرانيت الأحمر. أقيم تخليدا للإمبراطور دقلديانوس في القرن الثالث الميلادي. وهو آخر الآثار الباقية من معبد السيرابيوم الذي أقامه بوستوموس.ويعتبر أعلى نصب تذكاري في العالم، لم يتم تحديد تاريخ إنشاء هذا العمود على وجه الدقة لكنه يعود للعصر الروماني، وقيل أن هذا العمود أهدي للمسيحية بعد أنتصارها في الإسكندرية على مريام في معركة القميص.

نظر إيخمان إلى العمود غير مباليا بتاريخه ولا بتلك المعلومة التي قالها كاستنر منذ قليل ولكنه التفت إلى الأخير قائلًا:

ـ لماذا اخترت مصر تحديدًا يا كاستنر، ولم تذهب كباقي أبناء جلدتك إلى فلسطين؟!

يبدو أن السؤال كان مفاجاة لكاستنر الذي صمت للحظات وعيناه لم تفارقان النصب الشهير ثم تنهد بعمق وقال:

ـ تاريخنا في مصر أعظم من تاريخنا في اورشليم، ولكن ليس هذا السبب فقط.

ثم مال إلى اذن إيخمان ليقول مردفًا بهمس بدا كالفحيح:

ـ إنني أعشق تراب هذه الأرض، وأعتقد تمامًا أنها يومًا ما ستكون لنا.

نظر إيخمان إلى عينيه مباشرة كأنه يغوص في أعماق عقل ذلك اليهودي قبل أن يبتسم ساخرًا:

ـ ألا تريد أن تعرف لماذا جئت إليك؟!

ابتسم كاستنر وقال وهو يشيح بيديه في حركة مسرحية:

ـ إن كنت قطعت كل هذه المسافة، وجازفت بكل هذا الخطر من أجل شيء أملكه، فانت حتمًا ستطلبه مني دون أن أنبس ببنت شفة!

كان إيخمان يعلم جيدًا مع من يتحدث، ومع طبيعة الشخصية التي يتعامل معها، لهذا اشعل سيجارته واستحلب دخانها بعمق وهو ينظر إلى عمود السواري الشاهق ويقول:

ـ لقد بدأ الإعجاب يتملكني من هذا العمود حقًا.

ـ لماذا لا تختصر الوقت يا عزيزي؟!

ابتسم إيخمان ساخرًا وهو يعرف أن مناورته قد أثارت فضول اليهودي

ـ الفوهرر يريد شيئا تملكونه؟

جحظت عينا كاستنر جزعا عندما سمع لقب هتلر، ونظر إلى إيخمان قائلًا:

ـ هل يطلب هتلر التعاون من اليهود؟!

ـ بل خدمة مقابل خدمة.

امتقع وجه كاستنر وقال:

ـ أي خدمة يطلبها سفاح بني جلدتي؟!

ضحك إيخمان كثيرًا قبل أن يقول:

ـ وهل تصدق ما تروجونه في أبواقكم؟! ألست أنت نفسك واحدًا من أولئك الذين اشتركوا في اللعبة؟!

ارتجف صوت كاستنر قليلًا وقال:

ـ معسكرات الموت ممتلئة باليهود تحت وطأة التعذيب والقتل!

مال عليه إيخمان وقال متخابثا:

ـ ما المشكلة إن مات بعض عوام اليهود في مقابل تحقيق الحلم الأكبر؟

بهت كاستنر من هذه الجملة الأخيرة، فهي بالضبط ما قاله زعيم الصهيونية العالمية هرتزل في اجتماع الجمعية الصهيونية الأول سنة ١٨٩٧ الاجتماع الأول في سبيل تأسيس مملكة صهيون العظمى.

ابتلع كاستنر لعابه بصعوبة وقال:

ـ ماذا يريد الفوهرر؟

ارتسمت ابتسامة ظافرة على وجه ايخمان، أشعل سيجارته قبل أن يروي على مسامع كاستنر كل شيء وكانت مفاجأة للأخير بل كانت كالصاعقة تضرب رأسه، فهذا آخر ما كان يتوقعه.

القاهرة صيف 2017

غرفة اجتماعات مكتب رئيس أحد الجهات الأمنية، وما زال فريد متعجبًا مما يسمعه من رئيسه، فهذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها أن مصر استقبلت بعض الألمان النازيين الذين فروا من محاكمات الحلفاء.

ـ هذه هي الحقيقة يا فريد تمامًا.

قالها رئيسه الذي أردف قائلًا:

ـ كلهم كنا نعرف بوجدهم، بل تعاونوا معنا حتى أن بعضهم عمل في أجهزة حساسة مثل خطط التسليح والمخابرات، وقد استعان بهم رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، كما استفادت بهم أنظمة عربية أخرى مثل النظام السوري كل هذا وارد فالألمان كانوا متقدمين في شتى المجالات والفرصة سانحة للاستفادة منهم، إلا شخص واحد بطريقة

ما استطاع اللجوء إلى مصر دون أن تلتفت له أجهزتنا وهذا الشخص هو الطبيب الضابط أربيرت هايم التي تسعى خلفه سارة كاستنر!

قال فريد مستوضحًا:

- وما أهمية هذا الشخص تحديدًا فإن كان لا يزال حيًا فإنه سيكون تخطى عمره قرنًا من الزمان على أقل تقدير؟!
- بل هو توفي منذ خمس عشرة عام مضى.
- إذن انتهى الأمر!

تدخل في هذه اللحظة اللواء عدنان قائلًا:

- هذا الرجل ليس مجرد شخص عادي، أنه ضابط بأخطر مؤسسة أمنية نازية س.س، ليس هذا فقط، بل مساعد شخصي وشريك للدكتور النازي الأشهر مينغيلي في تجاربه المريعة داخل معسكرات الموت النازية كما يحلو للإعلام تسميتها، إلى هنا يبدو الأمر عاديًا ولا يعنينا في شيء حقًا.

هز فريد رأسه موافقا، في حين أردف اللواء قائلًا:

- خلال أربعينيات القرن الماضي حضر إلى مصر ضابط ألماني من قوة الـ ايه.اس اسمه إيخمان، ورغم خطورة المهمة لكنه بمساعدة بعض الجواسيس الألمان المنتشرين في مصر باعتبارها خاضعة لدولة العدو بريطانيا، وبمساعدة المتعاطفين مع الألمان باعتبارهم المخلص المنتظر من الاحتلال، في مصر كما روى بعض هؤلاء الذين شاركوا

في تأمينه هنا، وأصبحوا فيما بعد ضمن النخبة الحاكمة إبان ثورة يوليو، أن مهمته تلخصت في مقابلة يهودي ألماني مصري صهيوني اسمه كاستنر.

عقد فريد حاجبيه عند سماعه الاسم الأخير وقال:

- هل لهذا اليهودي علاقة بالصحفية سارة كاستنر التي حضرت مؤخرًا؟!

قال الرئيس متدخلًا:

- إنها حفيدته يافريد.

هز الأخير رأسه وقال:

- حسنًا الأمور تتشابك وتترابط!

قال اللواء:

- بالضبط الضابط النازي دخل إلى مصر وغامر ليقابل اليهودي كاستنر ليأخذ منه شيئًا ما، وبطريقة أو بأخرى استطاع الألماني إقناع كاستنر بل وعاد به إلى بلاده.
- ما زلت أرى أن الأمر لا يتخطى الصراع الألماني اليهودي!

ابتسم السيد عبد الرحمن وقال:

- يبدو أن سيادة الرائد متسرعًا في حكمه على الأحداث!
- من ضمن الدراسات والروايات التي نشرت لاحقًا بناءًا على اعترافات الضباط النازيين، قيل أن إيخمان بأمر مباشر من هتلر أعطى ما حصل عليه من كاستنر إلى مينغيلي الطبيب النازي، لكن هذا الشيء ظل سرًا لا يعرفه سوى

بضع من اليهود وكبار قادة النازيون ومينجيل وبالطبع مساعده الأقرب ألبير هايم وبعد وفاة الأول ١٩٦٢م بأمريكا الجنوبية استطاع ألبير الحضور إلى مصر حاملًا السر الغامض هذا، وإننا إذ نجد فجأة أمامنا حفيدة كاستنر تبحث عن هايم.

قاطع فريد قائده قائلًا:

ـ إنها تريد استعادة شيء كان بحوذة جدها.

قال الرئيس:

ـ تمامًا.

قال فريد:

ـ ولكن ما هو هذا السر؟

ـ حقيقة لا أحد يعرفه كما أخبرتك ربما تسرب بعضًا مما يخصه إلى المخابرات الروسية والأمريكية وربما بطريقة ما استشعرت منظمة «سيمون فيزينتال» أن في الأمر فائدة كبيرة لإسرائيل كما أنه يخدم ظاهريًا أهدافها المعلنة من مطاردة النازيين، ولقد بدأ هذ التوجه في ٢٠٠٤ بعد وفاة الضابط النازي أليوس برونير، في سوريا منذ ٤ أعوام، والذي عاش فيها منذ عام ١٩٥٤، ويعتبر من أهم المطلوبين الهاربين بسبب جرائمه خلال حقبة الحكم النازي في ألمانيا، ومسؤوليته عن ترحيل ١٢٨ ألف يهودي إلى مخيمات الموت، والمساعد الأول لأدولف

إيخمان، رئيس الجيستابو الذي حوكم وأُعدم في إسرائيل عام ١٩٦٢، وهو نفسه الضابط المكلف سابقًا بمقابلة كاستنر، وفيما يبدو أن الموساد وسيمون يبحثون عن شيء ما بحوزة ألبير مهمي.

ـ لكنه مات بسره؟!

قالها فريد فابتسم الرئيس قائلًا:

ـ لكن السر تم نقله.

الإسكندرية 1942

ـ إن ما تطلبه مستحيل من كل النواحي!

قالها كاستنر بعصبية، شديدة وهو يرمق إيخمان بنظرة نارية في حين بدا الأخير هادئًا وهو يقول:

ـ وما الاستحالة في ذلك؟! أنت سبق وسرقتها من من الحاخام افرايم كارلباخ قبل مقتله في عملية الزجاج المكسور!

نظر إليه كاستنر في تحدي:

ـ إنه موروث يهودي وأنا أقوم بواجبي تجاه بني جلدتي و...

قاطعه إيخمان قائلًا:

ـ مهلًا... مهلًا... أيها المخلص جميعنا يعلم أنكم سرقتموه من هؤلاء.

وأشار إلى الساري العملاق أمامه وهو يستدرك قائلًا:

- ثم أنك أن أعطيتني إياه سوف تنقذ بني جلدتك الموجودين الآن بين يدي العزيز مينغيلي كما أن لدي بمكتبي خطة الحل الأخير تحتاج فقط توقيع الفوهرر، وهي بمثابة طوق النجاة لليهود فأرسلهم بموجبها إلى أرض الميعاد.

إنكم ستهزمون حتمًا فما الضير في ذلك، ويشهد على ذلك استلنجراد!

كانت ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتي كاستنر، في حين تبدلت ملامح إيخمان الهادئة إلى الاحتقان وهو يعلم جيدًا ما يشير إليه اليهودي، فهو يعلم جيدًا وضع قوات بلاده المزري في روسيا وخاصة ستلينجراد، حيث يواجهون مقاومة شرسة من الجيش الروسي، مع النقص في الذخيرة والطعام وبمواجهة البرودة القارسة هناك، خاصة بعد تخليهم أي الألمان هم استراجية البرق والتي تعتمد على الهجوم الخاطف بأمر مباشر من هتلر وهي الاستراتيجية الرابحة خلال بدايات الحرب.

تمالك إيخمان نفسه واستعاد تماسكه وقال:

- ربما لن تكلفنا غرف الغاز الكثير حتى عند الهزيمة.

امتقع وجه كاستنر وهو يعلم جيدًا أن ما يقوله إيخمان حقيقي فماذا سيضرهم من إبادة اليهود إذا ما تعرضوا للخسارة، فعند الهزيمة لا يشكل أي شيء لدى المهزوم أهمية، خاصة وأن الحلفاء الذين لم يجدوا غضاضة في قصف المدنيين، بالتأكيد لن يرحموا من يسقط بأيديهم من الألمان.

ساد الصمت لحظات قبل أن يقول كاستنر بعد زفرة عميقة:

ـ وهو كذلك.

تهللت أسارير إيخمان فما حققه الآن يعد نصر مظفر، لكن كاستنر قاطع تلك السعادة التي اطلت من عينا الأول قائلًا:

ـ لكن عندي شرط؟

هز إيخمان رأسه علامة الاستماع فاستدرك كاستنر حديثه قائلًا:

ـ يجب أن يظل ما ستحصل عليه سر مهما حدث.

ابتسم إيخمان وقال:

ـ إنه سر منذ البداية وسيظل.

قال كاستنر وقد شعر بالارتياح:

ـ ولكن أخبرني، كيف علمتم مثل هذه المعلومة؟

ابتسم إيخمان قائلًا:

ـ من المفترض ألا أبوح لك بمثل هذه المعلومات.

ثم غمز بعينه قائلًا:

ـ لكنك صديق عزيز ولهذا سأخبرك، أن المعلومة بما أنها يهودية صرفة فقد تتبعها يهودي مهتم مثلك، وبطريقة ما حصلنا على مفكرة احتوت على معلومات خطيرة، لكن الرجل يبدو أنه لم يصل إلى الكثير غير أن الحاخام الراحل افرايم كارلباخ لديه المزيد، وبالتحري وبمساندة بعض ضيوفنا اليهود علمنا أنها لديك أنت ولعلاقتنا القديمة كلفت بالأمر وها أنا لم يخب ظني بك يا عزيزي.

انتهى إيخمان من جملته وانفجر ضاحكًا، ضحكة بدت لكاستنر شيطانية.

القاهرة 2017

«كل شيء بدأ بهم»

قال معتز هذه العبارة المقتضبة، قبل أن ينظر إلى طلابه في قسم التاريخ كلية الأداب كأنه يتأكد من لفت انتباههم وحصوله على تركيزه الكامل، فهو يعلم أن موضوع المحاضرة رغم تشويقه إلا أنه لا يسترعي انتباه كثير من الطلاب لسببين، أولهما أنه ليس من مقررات الدرس لكنه يفضل دائمًا التحدث عن مؤامرات التاريخ، فهو يعتقد أن الرسالة الكاملة من دراسة التاريخ لا تأتي إلا من خلال معرفة الجوانب الخفية من مؤامرات وكواليس الأحداث، وليس مجرد الرؤى الخارجية للمؤرخين.

ثانيًا رغم كم المعلومات المثيرة لكن يزهد الطلاب الشباب غالبًا في تداخلات الأحداث وتشابكها الصعب الذي قد يصيب المتابع بالملل أو التشتت.

استطاعت جملة معتز جذب انتباه أغلب الشباب فابتسم راضيًا وهو يردف مكملًا محاضرته

«بعد اندلاع الحرب العالمية في ١٩١٤ بفترة وجيزة، طلبت مجموعة من كبار الأثرياء من أحد المهندسين، أن يحول أحد القصور القديمة إلى ناد خاص... وقد أصر هؤلاء الأثرياء على حفظ اسمائهم طيّ الكتمان، لأنّهم يريدون التعبير عن عميق امتنانهم وشكرهم، للضباط الذين يعرّضون حياتهم للخطر في سبيل الوطن... وقد قام هذا النادي بتوفير كل وسائل الترفية والتسلية والمتعة... كان استعمال النادي مقتصرًا على ضباط الخدمة، عندما يعودون من الجبهة لتمضية إجازاتهم في لندن... أما الأعضاء الجدد، فكان يجري تقديمهم إلى النادي عن طريق أحد الأخوة الضباط، وتجري مقابلة بين الضيوف وأحد المسئولين... فإذا اقتنع هذا بأنه يمكن الوثوق بهم، أخبرهم كيف يجري العمل في النادي... لذلك كان على الضابط المتقدم للدخول أن يعد بشرفة ألا يذكر اسم أي شخص قابلة خلال مكوثه في النادي أو بعد خروجه... ثم يُشرح لهذا الضيف كيف أنه سيقابل مجموعة من أشهر سيدات المجتمع في لندن وهن مقنّعات، فعليه ألا يحاول معرفة شخصية أي منهن... وإذا حدث بالمصادفة أن تعرّف على إحداهن، فوعده يشمل المحافظة على سرّهن.

وبعد انتهاء هذه الخطوات الأولية، يؤخذ الضابط إلى غرفته الخاصة التي فرشت على أفخم طراز... وكان يطلب من الضيف أن يعتبر بنفسه في منزله، ويعلم بأنه ستزوره سيدة ترتدي قلادة عنق

كتب عليها رقم غرفته... فإذا أحب بعد أن يتم التعرف عليها أن يصحبها إلى غرفة الطعام، فهذا يعود إليه وله كامل الحرية.

لكن في عام ١٩١٦، حاول أحد أعضاء البرلمان الإنجليزي أن يفضح أمر «النادي الزجاجي»، وأن يبين حقيقته، فقد شكا ثلاثة من الضباط بأن النادي يحاول ابتزاز المعلومات منهم بعد أن دخلوا في العضوية، وأن النادي هو مركز للجاسوسية ينقل المعلومات الهامة إلى العدو، وقد شاركت في فضح النادي سيدة استرالية.

لكن بالطبع تم اسكات كل من يحاول الحديث عن النادي الزجاجي، فما يملكه قادته من أسرار كفيلة باخضاع أكبر الشخصيات سطوة ونفوذا وقوة!

ومن واقع السجلات الرسمية أن الضباط الثلاثة الذين قدّموا الشكوى بخصوص النادي الزجاجيّ، قد «قتلوا أثناء العمليات في الحرب»، وهذا شيء معقول في أيام الحرب... بعد ذلك علمت أن السيدة الاسترالية وسائقها قد ألقي القبض عليهما بحجة الدفاع عن المملكة، ثم أعلن أن العضو المذكور في فضيحة البرلمان قد اعتزل الحياة العامة...»

صمت معتز لحظات تجرع خلالها رشفة من كوب الماء الزجاجي ثم ألقى نظرة سريعة على طلابه وقال:

ـ «عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان اسكويت رئيسا للوزراء، وكان معاديا للصهيونية... فقرر الممولون الدوليون إزاحة حكومة اسكويت، وإحلال حكومة ائتلافية مكانها، على أن يكون للويد جورج ووينستون تشرشل عمل

كبير فيها... وكان دافيد لويد جورج محاميا عن الحركة الصهيونية، التي خططت لها ومولتها عائلة روتشيلد... أما وينستون تشرشل فكان مؤازرا للصهيونية السياسية منذ دخوله إلى المعترك السياسي.

في عام ١٩١٧ كان الممولون الدوليون يمدون في نفس الوقت الحركتين البلشفية والنازية... وقد يبدو من غير المعقول أن يبقي المجلس النيابي البريطاني دون علم بما يجري حوله، خصوصًا بعد أن وجدت الحكومة نفسها مضطرة للتدخل لإخلاء سبيل تروتسكي ورفاقة الثوريين، بعد أن ألقي القبض عليهم في هاليفكس، بينما كانوا في طريقهم من نيويورك إلى روسيا.

أما بالنسبة لسياسة بريطانيا عام ١٩١٦ تجاه روسيا، فإن المبرر الوحيد لها، هو أن الحكومة البريطانية كانت تعلم أن المساعدة المالية والعسكرية لن تقدم من قبل أميركا، حتى تسقط الحكومة الروسية... وقد يبدو هذا التحليل سخيفًا ولكن الحقائق التالية تؤكده:

بدأت الثورة الروسية في ١٩١٧ وعزل القيصر في الخامس من آذار نفس العام... مباشرة بعد ذلك، رفع يعقوب شيف الشريك في مؤسسة كوهن ـ لوب في نيويورك، القيود المالية المفروضة على الحلفاء، وأمر ابنه مورتيمر بإرسال برقية إلى السير ارنست كاسل تقول: «بسبب الأعمال الأخيرة التي تقوم في ألمانيا، والتطورات في روسيا، لن نستمر في حظر الأموال عن حكومات الحلفاء».

وفي الخامس من نيسان من نفس العام، أعلنت الحكومة البريطانية عن إرسال أرثر جيمس بلفور وزير خارجيتها إلى الولايات

المتحدة، للاتصال بممثلي المصارف الأميركية، وإبلاغهم رسميا بأن الحكومة البريطانية ستتبنى مشاريعهم المتعلقة بالصهيونية، مقابل تعهدهم بإدخال أميركا إلى جانب الحلفاء... وهكذا دخلت أميركا الحرب، وهبطت الكتائب الأمريكية الأولي في فرنسا فكتب اللورد روتشيلد إلى السيد بلفور ما يلي:

- «عزيزي السيد بلفور... أخيرًا أصبح بإمكاني أن أرسل لك الصيغة التي طلبتها، فإذا تلقيت ردا إيجابيا من حكومة صاحب الجلالة ومنكم شخصيا، فسأقوم بإبلاغ ذلك إلى «الاتحاد الصهيوني» في اجتماع خاص، سوف يدعي إليه لهذا الغرض خصيصًا».

وجاء في النسخة الأولية للنص ما يلي:

- «تقبل حكومة صاحب الجلالة بمبدأ وجوب إعادة تأسيس فلسطين كوطن قومي لليهود.

سوف تبذل حكومة صاحب الجلالة كل طاقتها لتأمين الوصول إلى هذا الهدف، وسوف نتناقش فيما يتعلق بالطرق والوسائل التي يتطلبها تحقيق هذا الهدف مع المنظمة الصهيونية.»

وهكذا خضعت الحكومة البريطانية ـ ممثلة بالمستر بلفور ـ دون قيد أو شرط، للشروط التي وضعها اللورد روتشيلد وزملاؤه زعماء المنظمة الصهيونية... ويتبين لنا ارتباط هذه الحكومة بهؤلاء، من قبولها لطلباتهم الأخرى، ولاسيما طلب تعيين اللورد ريدينغ Reading رئيسًا للبعثة الاقتصادية البريطانية في الولايات

المتحدة، في حين أن اللورد ريدينغ هذا ليس سوى السير روفوس إسحاق، الذي اقترن اسمه بفضيحة فاركوني الشهيرة... وقد تبنى إقناع الحكومة البريطانية بتعيينه لهذا المنصب الحساس، اللورد روتشيلد ذاته، وزملاؤه من الزعماء الصهيونيين السير هربرت صاموئيل (الذي أصبح فيما بعد، أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين)، والسير ألفرد موند (الذي منح أيضًا لقب لورد فيما بعد).

وقد أجري اللورد ريدينغ محادثات مالية مهمة مع الحكومة الأميركية، لم نتمكن من كشف سرها... ولكن كان من نتائجها إعادة تنظيم بنك إنجلترا على أسس جديدة بعد عام ١٩١٩، ونشوء بعض الارتباطات المالية الخفية... وننقل فيما يلي فقرات من رسالة أرسلها (يعقوب شيف) إلى أحد الزعماء الصهيونيين المدعو (فريد مان) في ١٩١٧: «إنني أعتقد الآن جازما، أنه أصبح أمرًا ممكن التحقيق، مساعدة بريطانيا وأميركا وفرنسا لنا في كل الظروف، للبدء بهجرة مستمرة واسعة النطاق لشعبنا إلى فلسطين، ليستقر فيها... وسيكون من الممكن فيما بعد الحصول على ضمان من الدول الكبرى لاستقلال شعبنا... وذلك حينما يبلغ عددنا في فلسطين مقدارًا كافيًا لتبرير مثل هذا الطلب».

وهناك رسالة أخرى تحمل ما هو أخطر من ذلك... ففي ١٩١٧، كتب لويس مارشال الممثل لمؤسسة كوهن ـ لوب، إلى صديق صهيونيّ له يدعي ماكس سينيور: «لقد أخبرني الماجور ليونيل دي روتشيلد من التنظيم اليهودي البريطاني، أن وعد بلفور وقبول الدول الكبرى به، لهو عمل ديبلوماسي من أعلى الدرجات... والصهيونية

ما هي إلا عمل مؤقت من خطة بعيدة المدى، وما هي إلا مشجب مريح يعلق عليه السلاح الأقوى... وسنبرهن للقوي المعادية أن احتجاجاتها ستذهب هباء، وستعرض أصحابها إلى ضغوط كريهة وصعبة».

وما الخطة بعيدة المدى المذكورة في هذه الرسالة، إلا إشارة إلى أن الممولين الدوليين ينوون السيطرة التامة على اقتصاديات العالم، وعلى جميع المصادر الطبيعية والقوي البشرية في الكون بأسره.

في ١٩١٥ دوّن رئيس الوزراء الإنكليزي المستر اسكويت، الفقرات التالية في سجّله اليومي: «تلقيت للتو من هربرت صاموئيل، مذكرة بعنوان «مستقبل فلسطين»... وهو يظن أننا نستطيع إسكان ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين في ذلك البلد، وقد بدت لي فكرته هذه كنسخة جديدة من أقاصيص الحروب الصليبية... وأعترف بنفوري من هذه المقترحات التي تضم مسؤوليات إضافية إلى مسؤولياتنا».

وتقدم لنا هذه العبارات، البرهان الكافي على أن المستر اسكويت لم يكن ميالًا إلى الصهيونية... طبعًا مصير اسكويت ووزارته تقررا منذ ذلك الحين.

كان الصهيونيون يسيطرون منذ أمد بعيد على الصناعات الحربية في إنكلترا... وعندما قررت المؤامرة محاربة نظام اسكويت المعادي للصهيونية، وجدت إنكلترا نفسها فجأة في وسط الحرب أمام أزمة شديدة في الصناعات الكيميائية، التي هي الأساس لصنع الذخائر الحربية والمتفجرات... وامتدت الأزمة أيضًا إلى مصانع

المدافع، التي اضطرت لتقنين أنتاجها... وألقى الشعب التبعة بالطبع على عاتق الحكومة.

وكان المشرف على الإنتاج الكيماوي في إنكلترا، السير فريدريك ناثان... وقد عهد هذا إلى معامل برونر وموند بتلافي أزمة أنتاج المواد الكيماوية، ومنحها أرصدة حكومية ضخمة لهذا الغرض... أما مالكا هذه المعامل ـ السيدان برونر وموند اليهوديان ـ فقد بنيا معملا كيماويا ضخما في سيلفر تاون... وعلى الرغم من أنه بني بأرصدة حكومية، إلا أنه حين بدأ أنتاجه، أخذت أجهزة الدعاية والصحافة التي يسيطر عليها المرابون الصهيونيون، تكبل آيات المديح جزافا لبرونر وموند، وتنسج هالات التمجيد المزيفة حولهما وحول الماليين اليهود، ناسبة لهم أنّهم يدعمون الإنتاج الحربي البريطاني، في وقت تحيط فيه الإخطار ببريطانيا... وهكذا ظهر هؤلاء بمظهر المنفذين، وبقيت تبعة اللوم على عاتق الحكومة... بيد أن معمل سيلفرتاون لم يلبث أن انفجر فجأة، وقتل أكثر من أربعين شخصًا في هذا الانفجار المدبر، وتهدم ثمانمائة منزل... وكانت النتيجة أن الإنتاج الحربي الكيماوي ركد من جديد، وعادت الأزمة تهدد وزارة اسكويت... وظل الأبطال المزيفون بمنجى من اللوم، يحيط بهم العطف والمديح... ويجب أن نذكر أن السير الفرد موند المذكور، والذي كان يشرف على العمل الكيماوي كمبعوث من قبل الملك، أصبح هو بعينه فيما بعد، رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين!

هذا، وقد كانت إنكلترا ملتزمة بمساعدة حليفتها روسيا، وتزويدها بالبنادق والذخائر... فكان من نتائج هذا التقصير في صناعة الأسلحة والمواد الكيماوية، أن لاقى الجيش الروسي ضربات قاسية في الجبهة الشرقية، لأن الأسلحة والذخائر لم تصله... وأعلنت الصحف أن الجنود الروس كانوا يحاربون بالعصي وبقبضات أيديهم، حتى يذبحوا أمام الجنود الألمان... وفي رسالة كتبها البروفسير برتارد بارز Bernard pares ووجهها إلى لويد جورج، كلمات تظهر بوضوح أن الأسلحة والذخائر منعت عن روسيا القيصرية قصدًا، وذلك لخلق أجواء مناسبة للثورة... تقول رسالة بارز التي كتبت عام ١٩١٥ «صار لزاما على أن أنقل رأيي الأكيد بأن فشل السادة فيكر ـ ما كسم وشركائهما Vickers – Maxim في تزويد روسيا بالسلاح، الذي كان يجب أن يصل البلاد قبل خمسة أشهر، يعرقل العلاقات بين البلدين، وخصوصًا تعاونهما في الحرب الحالية... وقد بلغني بالتأكيد أنه لم تصل إلى روسيا أي مساعدة من أي نوع من إنكلترا».

وكان لويد وزيرًا للمالية ومسئولًا عن تمويل الحرب... أما السادة فيكر ـ ما كسيم وشركاؤهما، فكانوا تحت راية السير أرنست كاسيل وكيل أعمال مؤسسة كوهن ـ لوب في نيويورك، والذي كان بدوره مرتبطا بعائلة روتشيلد والممولين الدوليين في إنكلترا وفرنسا وألمانيا.

ولنبين أن السادة فيكر ـ ماكسيم وشركائهما كانوا تحت تأثير مؤسسة كوهن ـ لوب في ذلك الوقت، ننقل قول بوريز برازيل: «في ٤ شباط ١٩١٦، عقد الحزب الثوري الروسي في أميركا، اجتماعًا في نيويورك، حضره ٦٢ موفدا... وقد كشف النقاب عن أن تقارير سرية وصلت الحزب من روسيا، تفيد بأن الوقت أصبح مناسبا... وتم التأكيد للمجتمعين بأن مساعدات مالية كافية ستقدم من قبل أشخاص يتعاطفون مع قضية تحرير الشعب الروسي... وفي هذا الخصوص ذكر اسم يعقوب شيف مرارًا... ويعقوب شيف هذا كان في ذلك الوقت عضوا كبيرًا في مؤسسة كوهن ـ لوب في نيويورك... وعلى وجه التقريب فإن خمسين عضوًا من الاثنين والستين الذين حضروا اجتماع شباط ١٩١٦ كانوا قد اشتركوا فعلًا في الثورة الروسية عام ١٩٠٥... ومرة أخرى كان عليهم أن يحرّضوا على العمل الثوريّ، ولكن يعقوب شيف كان قد خطط أن يغتصب لينين ثمار النصر».

وعندما ناقش المجلس البرلماني رسالة بارز المذكورة والموجهة إلى لويد جورج، تقول الأخبار أن لويد جورج دافع عن سياسة حكومته، بأن «الصدقة والإحسان يجب أن يبدأ في البلد، لأن قواتنا البريطانية تقاتل في فرنسا، ولا تملك سوى أربع رشاشات لكل كتيبة... ويجب قبل أن تصدر الأسلحة إلى روسيا، أن نسلح جنودنا نحن»... ويقال أن اللورد كتشنر أجاب لويد جورج بقوله: «أنا أعتبر أكثر من أربع رشاشات لكل فصيلة تبذيرًا، عندما أري فشلنا

في تزويد السلاح ـ الذي وعدنا به روسيا ـ قد نتج عنه وجود بندقية واحدة فقط مع كل ستة جنود روس».

وقد استغل المتآمرون العالميون هذه العبارة التي نطق بها كتشنر، وأمروا عملاءهم ليستعملوها في تشويه سمعته... فانتشر في العالم كله، أن كتشنر يعتبران أكثر من أربع شاشات للكتيبة الواحدة، عمل تبذيري لا يحتاج إليه الجنود البريطانيون في حربهم في فرنسا... وقد استمر هذا التشويه حتى أيامنا هذه، وظهر في «سيرة دافيد لويد جورج»، الذي صدر حديثا، كما ظهر في نفس السيرة منقحة في المجلة الأسبوعية «تورنتو ستار»... وقد أرسلت إلى محرر الجريدة المذكورة، الحقيقة المتعلقة بهذا الحدث التاريخي الهام، فأجاب معتبرًا التصحيح الذي أطلبه منه عملًا ديناميكيًا صعًبا لا يمكنه معالجته، وأخبرني أنه نقل رسالتي إلى «الدايلي ستار»... وليس ضروريًا أن أقول أن «الحقيقة لم تنشر أبدًا.»

أنهى معتز محاضرته الطويلة ليسود بعد جملته الأخيرة «إن الحقيقة لم تنشر أبدًا» صمت عجيب امتد لدقيقة كاملة قبل أن تنفجر القاعة بالتصفيق الحار، فتنهد معتز وقد ارتسمت ابتسامة رضى على شفتيه، والتي سرعان ما تحولت إلى نظرة عابثة عندما وقعت عيناه على وجهها!

إنها سارة كاستنر!

القاهرة 1992

ساد الهرج شارع بورسعيد بحي العتبة وخاصة أمام المبنى العتيق للفندق الشعبي «فندق قصر المدينة» وأهالي الحي الشعبي يتجمعون حول سيارات الشرطة وسيارة إسعاف تقف بالقرب من المدخل الرئيسي للفندق وبالأعلى وداخل حجرة بسيطة جدًا وقف ضابط قسم شرطة الأزبكية ووكيل النيابة وبعضًا من رجال البحث الجنائي.

كان مختار الشيمي وكيل أول النيابة يسد أنفه بمنديل ورقي، فرائحة الحجرة كانت لا تطاق خاصة مع وجود جثة شبه متحللة ترقد على الفراش الوحيد الموجود مع مقعدين باليين، وخزانة ملابس متهالكة قد سقطت احدى دلفتيها.

كان كل شيء طبيعي في الغرفة ولا يوحي بأي شبهة جنائية فالأمر كما ذكر صاحب الفندق العجوز وابنه الشاب لا يتخطى وفاة شخص مسن تجاوز الخامسة والسبعين من عمره، وافته المنية منذ

عدة أيام دون أن يلحظ أحد اختفاءه داخل حجرته حتى شموا رائحة تحلل الجثة!

كل شيء منطقي ومتكرر الحدوث، لكن ما كان غريبًا بعض الحاجيات العجيبة التي وجدوها أثناء التفتيش، ففي حين تثبت أوراق الفندق وبطاقة هوية أن المتوفي هو طارق فريد حسين مسلم الديانة، وبشهادة الشهود أنه دائمًا ما يصلي الفجر في مسجد الحسين! إلا أن حقيبته تحمل شيئًا مغاير تمامًا جواز سفر أجنبي استطاع مختار قراءة شيئين فقط عليه اسم الدولة، واسم صاحب الجواز الذي كتب أسفل الاسم بلغة غريبة كتب أيضًا بالإنجليزية «اربيرت هايم»!

كانت الصورة ذات اللونين الأبيض والأسود المثبتة على جواز السفر تشبه إلى حد كبير ملامح صاحب الجثة أمامه مع فارق زمني كبير بالطبع.

لم يكن أحد من أهالي الحي ولا حتى صاحب الفندق يعلم أي شيء عن تلك المعلومة الغريبة فصاحب الجثة والمعروف باسم طارق فريد حسين هو نفسه صاحب وثيقة سفر ألمانية باسم أربيرت هايم!

بل أن الجميع كانوا يؤكدون على مصريته رغم لون بشرته الأبيض وعيونه الزرقاء لكنهم يؤكدون أن لغته العربية لم يشوبها شائبة كما أنه كان شخص محبوب وهاديء الطباع.

كان الأمر رسميا بالنسبة لمختار قد انتهى فالطبيب الشرعي أكد أن الموت طبيعي مائة بالمائة كما أن بطاقة الهوية سليمة فمن

المنطقي أنه أعلن إسلامه بالأزهر وعلى أساس ذلك كان من حقه الحصول على هوية إسلامية.

لكن ما لفت نظر فريد أكثر هو البوم ضخم للصور، وقد لاحظ صاحب الفندق هذا الاهتمام من وكيل النيابة فتطوع قائلًا:

ـ الله يرحمه كان يهوى التصوير، فالكاميرا لم تكن تفارقه أبدًا.

نظر مختار إلى الرجل الذي اشرأب بعنقه محاولًا النظر إلى الألبوم ومختار يقلبه سريعًا، قبل أن يكمل إفراغ محتويات الحقيبة الجلدية فيتوقف عند ورقة كبيرة مطوية، ولسبب مجهول دسها بين ألبوم الصور.

اقترب الضابط من مختار قائلًا:

ـ أعتقد أن الأمر منتهي؟

هز مختار رأسه موافقًا وقال:

ـ أمر بدفن الجثة.

ـ لقد جمع أهالي الحي التبرعات للمصاريف اللازمة لدفن الرجل فهو بمثابة واحد منا.

قالها صاحب الفندق، فابتسم مختار وقال:

ـ حسنًا.

تدخل رجال الإسعاف لنقل الجثة من فوق الفراش وكان رجال الشرطة قد تقهقروا خارجًا لإتاحة مجال لعمل الإسعاف في حين لاحظ مختار شيئًا ما يسقط أسفل الفراش، فاستغل حالة الخشوع

التي أصابت الجميع أثناء خروج المسعفين بجثة طارق والتقط مفكرة متوسطة الحجم أخفاها خلف ألبوم الصور.

اقترب جندي منه قائلًا:

ـ على أن أحرز كل ما وجدناه هنا؟

وأشار إلى ألبوم الصور

فقال مختار:

ـ ألا يمكنني الاحتفاظ به؟

تلعثم الجندي قليلًا فهذا لا يجوز قانونًا إلا أنه أيضًا لا يمكنه إجبار رجل في مثل منصب مختار!

ـ دعه لسيادة الوكيل ما دام يفضل ذلك.

كان صوت الضابط الذي ابتسم ابتسامة ودودة قبل أن يردف قائلًا لمختار:

ـ يبدو أن صوره قد نالت إعجابك؟!

هز مختار رأسه موافقًا وهو يتصنع ابتسامة وقال:

ـ حقًا لقد كان بارعًا في هذا، ولقد لاحظت بعض اللقطات الجيدة.

هز الضابط رأسه متفهمًا قبل أن ينصرف الجميع مخلفين حجرة خاوية على عروشها قد هجرها رجلًا عاش بين تلك الجدران زمن طويل جدًا محتفظًا لنفسه بلغز محير لماذا تحول أربيرت هايم إلى طارق فريد حسين.

1942

معسكر أوشفيتزبيركيناو جنوب بولندا[1]

رغم وجهه الباسم، وملامحه الهادئة الوسيمة، لم يكن أحد يتخيل أنه في هذه اللحظة كان يقف مباشرة أمام ملاك الموت جوزيف مينغلي الطبيب النازي الأشهر!

(١) أُفتتح معسكر أوشفيتز، المعروف أيضًا باسم أوشفيتز-بيركيناو، في عام ١٩٤٠ وكان أكبر معسكرات الاعتقال والقتل النازي، وتقع مدينة أوشفيتز في جنوب بولندا، وكانت في البداية مركز احتجاز للسجناء السياسيين، ومع ذلك، تطورت إلى شبكة من المخيمات حيث تم القضاء على اليهود وغيرهم من أعداء الدولة النازية، وغالبا ما حدث ذلك في غرف الغاز، أو قاموا باستخدامهم كعبيد، وتعرض بعض السجناء أيضًا لتجارب طبية بربرية بقيادة جوزيف منجيل (١٩١١-١٩٧٩) خلال الحرب العالمية الثانية.

وتم فقدان أكثر من مليون شخص في هذا المعسكر، حسب بعض الروايات، فقدوا حياتهم في معسكر أوشفيتز، وفي يناير ١٩٤٥، عندما اقترب الجيش السوفيتي، أمر المسئولون النازيون بإخلاء المعسكر وأرسلوا ما يقدر بـ ٦٠،٠٠٠ سجين في مسيرة بالقوة إلى مواقع أخرى قبل أن يدخل السوفييت معسكر أوشفيتز.

ارتدى مينجيل معطف أبيض وقفازين مطاطيين، أعطت عيناه الغائرتان وحاجبيه الأشقرين البارزين مع ابتسامته شكلًا عجيبًا خاصة عندما تعلم حقيقة الشخص الذي يقف أمامك!

وإلى جواره وقف شاب أشقر في منتصف العشرينات أشقر الشعر قصيره يصففه بعناية إلى الجانب الأيسر، عيناه واسعتان، صارم الملامح طويل القامة أنه الضابط الطبيب أربيرت هايم ذراع مينجيل الأيمن وموضع ثقته!

كان يرتدي أيضًا ملابس طبية، كان أمامهما مباشرة سرير طبي متحرك مقيد إليه صبي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره يبدو بكامل وعيه، وعيناه يملأهما الرعب والهلع وابتسامة متشفية تتخذ طريقها إلى شفتي أربيرت وهو يرى كم الرعب على وجه الصبي.

مضت لحظات قبل أن يصدر صوت جلبة معدني الصادر من ترولي حديدي يحتوي عدة معدات جراحية تدفعه الممرضة الحسناء إيرما جريس بعينيها الزرقاوتين وجسدها الممشوق الذي زاد من روعته الثوب الطبي الأبيض ذو الحزام بالوسط.

اقتربت ايرما بالمعدات فنظر مينيجلي إلى أربيرت قائلًا:

ـ هل أنت مستعد لهذه الخطوة الجديدة؟

ـ بالطبع فأنا أشعر بالتفاؤل هذه المرة

قالت ايرما:

ـ أتمنى أن يكون ما جلبته كان ذا قيمة؟

ضحك مينجيل وهو يمرر ظهر إبهامه على وجهها قائلًا:

ـ يا عزيزتي أنت مفيدة دائمًا، ولكن هذا نصف الأمر فقط أما النصف الآخر فيتم هنا في أوشفيتزبيركيناو، ومن أفضل منكي أن تشهدي النصفين معًا.

قال أربيرت وهو يزفر بعمق:

ـ لنبدأ الآن فالوقت يداهمنا والحرب تتجه إلى عكس التيار.

تنهد جوزيف مينجيل قائلًا:

ـ عندك حق، فلم يتبقى سوى مخططنا الأكبر، وفي الوقت الذي يسعى فيه إيخمان لتنفيذ الشطر الأول علينا أن نتمم نحن الشطر الثاني هيا.

أنهى جوزيف جملته وتناول مشرطًا جراحيًا حادًا ودون أي تردد غرسه في جمجمة الصبي الذي صرخ بكل ما أوتي من قوة رعبًا وألمًا والمشرط يهبط نازلًا إلى أعلى أنفه قبل أن يخرجه مينجيل ليغرسه مرة أخرى في مؤخرة رأس الغلام ويهبط نازلًا حتى الفقرة الأولى من عموده الفقري، ليمد أربيرت يده فيوسع بكفيه الفجوة بين الجلد الذي شقه مينجيل، والغلام ما زال يصرخ والدماء تغرق وجهه والألم يمزق كل أوصاله، فاقتربت ايرما من وجه الغلام تتحسس بأناملها الدماء التي انفجرت كشلال واقتربت برأسها من وجه الصبي حتى لفحت أنفاسها وجهه وهي تخرج لسانها لتلعق بعضًا من الدماء قبل أن تنفجر ضاحكة بتشفي في الغلام الذي لم يستطع في هذه اللحظة تحمل الألم ليسقط في غيبوبة عميقة.

فنظر أربيرت إليها متعجبًا من كل تلك القسوة التي تحملها فتاة في مثل عمر ايرما وبجمالها وقال:

ـ إنك حتمًا أخت الشيطان.

انفجرت ايرما ومينيجلي ضاحكين كأنهما تجسيد حقيقي للشر!

القاهرة 2017

ـ ألست متحاملًا كثيرًا على أناس لاقوا كل ويلات الحرب، من تعذيب وتنكيل؟

قالت سارة كاستنر جملتها وهي تقف أمام معتز الذي أنهى محاضرته منذ لحظات ليفاجئه وجودها في فصل الدراسة!

نظر إليها متعجبًا وقال متجاهلا حديثها عن موضوع محاضرته:

ـ لماذا عدتي؟!

كانت نبرتها أقل حدة كثيرًا من ذي قبل وعلى وجهها ابتسامة ودودة، لم يطمئن لها كثيرًا فهو يعرف طباعها منذ سنوات، ورغم مشاعر خفية اختلجت صدره من ناحيتها لكنه أخفاها عنها طوال سنوات الزمالة، فهو يعلم جيدًا أن سارة من النوع الذي يسعى خلف مصلحته فقط، وأن عليك الاحتراز إن عاملتك برقة يومًا!

قالت في دلال مصطنع وعيناها إلى الأرض:

ـ تخيل شابة أجنبية وفي غاية الجمال، حسناء عفراء ممشوقة القوم، رابضة بوسط قاهرة الزحام، بين الباعة المتجولين والمارة وضجيج المدينة. أراها في راحة يديها البضة صورة فتوغرافية متجولة في ترهات الأزقة وبين الحارات الشعبية، مضحكة بمنظرها الخلق عليها تارة، ويحنّ البعض الآخر على حالها تارة أخرى؛ يعطفون ومن وطأة حزنهم على حالها وعلى استحالة نجاح المهمة العويصة التي هي أمامها. يجولون معها الأزقة، يحومون حولها ومعها وعليها في طرقات الله الممتدة زنقة زنقة، يترجمون لها يبحلقون في جمالها يترقبون ويرغبون نظراتها الغربيّة والغريبة على أفقهم الشرقيّ، يتأملونها زوجة، صديقة أو حبيبة، لكن الأمر حتمًا سيختلف أن كانت برفقة رجل وسيم مثلك؟!

أنهت سارة حديثها قبل أن تسبل عينيها في خجل مصطنع لم يرقه إلا أن مشاعر معتز القديمة لا زالت تدفعه نحوها.

ولكن لا يمكنني مساعدتك فيما لا اعرفه!

قالت له:

ـ سأخبرك بما تريد ولكن بعد أن تدعوني إلى طعام الغذاء.

لم تمض عدة دقائق حتى كانا يسيران بسيارة معتز متجهين إلى أحد المطاعم الأنيقة وقد أشارت إليه سارة باتخاذ طاولة في مكان منعزل عن بقية رواد المطعم.

وما أن انتهيا من طلب الطعام حتى نظر معتز إليها متسائلًا:

ـ لماذا عدتي؟

نظرت إليه متعجبة وقالت:

ـ لقد أجبتك على هذا السؤال مسبقا!

اعتقد أن سارة كاستنر ليست من هذا النوع الذي يخشى الاختلاط بالناس!

ضحكت سارة حتى خيل لمعتز أن رواد المطعم، قبل أن تقول وهي تغمز بعينها:

ـ حقًّا لم يخيب ظني بك.

اعتدلت في جلستها قبل أن تقول مستدرجة وقد اكتست ملامحها بالجدية:

ـ اختيارنا لك لم يكن عشوائيا مطلقا.

قاطعها معتز وقد رفع حاجبيه بدهشة قائلًا:

ـ اختياركم! ومن أنتم؟!

قاطعهما اقتراب مضيف المطعم وهو يرص اطباق الطعام قبل أن يستدير مبتعدا باحترام مبالغ فيه ربما عندما سمع حديثهما بالإنجليزية، خاصة سارة وهيئتها الأجنبية ببنطالها القصير وتي شيرت بمقاس الجسد فابدا مفاتنها وذراعيها العاريين.

اقتربت منه سارة وقالت:

ـ ما رأيك في بضع ملايين من الدولارات؟

شهق معتز من سماعه قيمة المبلغ، في حين استدركت قائلة:

ـ أنا أعلم أن رواتب الأساتذة هنا ليست كثيرة.

علت نبرة معتز وهو يقول:

ـ ماذا تريدين تحديدًا أو ماذا تريدون؟!

كان وجهه محتقنا بشدة، ونبرته مرتفعة أكثر من اللازم فمعرفته بسارة تؤكد له أن خلفها أمر خطير، بل ربما شديد الخطورة كذلك.

قالت وهي تلوك بفكيها طعامها:

ـ هل سمعت يومًا عن كنوز النازية؟

قال متعجبًا:

ـ أكيد بالطبع!

قالت:

ـ حسنًا هذا ما نبحث عنه بالضبط.

ضحك معتز بشدة وقال:

ـ وهل تعتقدين أنتي أو أنتم انهم أخفوها هنا في مصر؟!

قالت مبتسمة:

ـ بالطبع لا، لكن البداية من هنا.

ـ هل يمكنك الحديث مباشرة.

مالت إلى الأمام حتى ظهر بوضوح مفترق نهديها، وهي تلحظ نظرته المتلصصة التي اخترقت قميصها الضيق، وقالت:

ـ هل سمعت عن طبيب الموت النازي؟

تراجع معتز فجأة وهو يسمع الاسم الأخير قبل أن يقول:

ـ جوزيف مينجيل! لكنه مات بأمريكا الجنوبية؟!

قالت وهي تشير بإصبعها نافية وقالت:

ـ بل أربيرت هايم.

كان يعرف الاسم جيدا، فقال:

ـ هل تقصدين ذلك الرجل الذي عاش هنا في مصر لمدة طويلة تحت اسم طارق؟

ـ يبدو أنك تعرف القصة؟!

ـ ليس بالضبط ولكن أتذكر أن اسمه تداول كثيرًا منذ أكثر من عشر سنوات خصوصًا بعد موت ضابط آخر بسوريا عام ٢٠٠٤ كان أيضًا متخفيًا لزمن، فانطلقت الصحف تذكر أسماء العديد من الضباط الألمان الفارين ومن بينهم جاء ذكر أربيرت هايم.

ضحكت سارة وقالت:

ـ بالضبط هو.

رفع معتز حاجبيه مندهشا وقال:

ـ بحسب معلوماتي أنه توفي منذ بداية التسعينات!

هزت رأسها موافقة وقالت:

ـ لكنه كان يملك شيء مهم نريده.

فكر معتز قليلًا قبل أن يقول:

ـ لكن إذا حدث ذلك، فبالتأكيد أن كل ما كان معه لدى الشرطة، ومع طول الفترة الزمانية!

تراجعت في مقعدها وقد عقدت حاجبيها في صرامة قائلة:

ـ كل ما لدى الشرطة حصلنا عليه فعلًا.

فغر فاهه دهشة، وقد أصابه توتر بالغ من هذا الحديث الشائك حتى شعر أن لسانه قد أصابه الشلل للحظات طوال، ولكنه أخيرًا تغلب تغلب على ذهوله وقال:

ـ يجب أن أعرف تحديدًا من أنتم وماذا تريدون تحديدًا.

كان حديثه عصبيا، وهي تنفجر ضاحكة بشدة، ساخرة من حيرته قبل أن تخرج من حقيبتها علبة سجائرها وتشعل سيجارتها الأنثوية الرفيعة ذات النكهة واستنشقت نفسًا عميقًا قبل أن تقول:

ـ تستطيع القول إننا منظمة إنسانية تطارد مجرمي الحرب.

تراجع إلى الخلف متصنعًا الدهشة وقال:

ـ وهل خلا العالم من مجرمي الحرب، حتى يطاردون أشخاصًا إن وجدوا الآن فقد تجاوز أغلبهم التسعين من أعمارهم، في حين يرتع آخرون في مأمن من الحساب تحت رعاية وبمباركة الدول العظمى!

ـ يا عزيزي ما زلت تؤمن بهذه الخرافات والمعتقدات، يا عزيزي هناك توازنات لا يمكن للعالم الاستمرار دونها، أنها لعبة ونحن مجرد أحجار فيها هذا هو دورنا كشعوب وكدول صغيرة.

مال عليها وهو يغمز بعينه قائلًا:

ـ وماذا سيفيد كنز النازيون في صنع هذه التوازنات؟!

نفثت دخان سيجارتها بعمق وقالت:

ـ إننا منظمة أهدافها إنسانية، وبالطبع نحتاج إلى تمويلات فما المانع من وجود بعض الدعم المادي خاصة أنها أموال وثروات في الأصل منهوبة؟

فكر قليلًا قبل أن يقول:

ـ رغم عدم اقتناعي لكنني سأظل معك للنهاية، ماذا تريدين مني تحديدًا؟!

ـ أريد أن أصل إلى أغراض أربيرت القديمة التي اختفت من الأحراز الحكومية.

ـ وما أدراكم أن هناك أغراض أخرى كانت معه؟

قالت وهي تغمز:

ـ لقد جمعنا عنه الكثير والكثير يا عزيزي.

أنهت حديثها وانفجرت ضاحكة حتى خيل إليه أنه يجلس أمام حية رقطاء.

الإسكندرية 1942

ـ عليك أن تعلم أنني الآن أسلم لك عنقي قبل أن أسلم سرنا!

كان هذا هو اللقاء الثاني بينهما بعدما استطاع إيخمان إقناع كاستنر بإعطائه السر الذي حافظ عليه اليهود لمئات السنين.

ضحك إيخمان من جملة اليهودي كاستنر قبل أن يقول:

ـ يا عزيزي كلنا نلعب في اتجاه واحد ولهدف واحد!

قال كاستنر:

ـ وهل قتلكم لبني جلدتي يعد لنفس هدفنا!

كل شيء يسير بدقة في اتجاهه، ولكنكم اخترتم الإسراع في اللعبة وهذا ما كلفكم ما أنتم فيه الآن، ولكن والحق يقال، لقد نجحتم حقًّا وببراعة.

قال كاستنر بحنق:

ـ لا أدري لماذا تكنون لنا كل هذا البغض والكره؟!

قال إيخمان:

- سأذكرك ياكاستنر بما فعلتوه، بدأت القصة منذ عام ١٨٥٠ حيث بدأت سيطرة اليهود على المناصب الكبرى فى الرايخ الألماني رغم أنهم كانوا أقلية لا تتجاوز ٢٪ من الألمان. وعندما جاء هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣ كانوا حوالى ٥٠٠ ألف من ٦٠ مليون ألمانى هل تعي ذلك ياكاستنر؟

قالها إيخمان وهو يرمق اليهودي بنظرة نارية قبل أن يستدرك قائلًا:

- إلا أن هذه الأقلية الصغيرة نجحت فى السيطرة على ٧٩٪ من الاقتصاد عبر البنوك الربوية و٦٠٪ من الإعلام وشغلوا ٧٠٪ من مناصب القضاة، وفرضوا وجودهم فى الصحافة والسينما والمسرح، ومن خلال هذه السيطرة تسبب اليهود فى الكثير من الانهيارات الاقتصادية التى حدثت للبنوك فى الفترة بين ١٨٧٠ و١٩٢٠ وتسببت في معاناة الشعب الألماني وإفلاس العائلات الألمانية بسبب عصابات اليهود البنكية بما فيهم ادولف هتلر وعائلته!

أما السبب الرئيسي في هذا البغض هو دوركم في الحرب العالمية الأولى وتسببكم في هزيمة ألمانيا ففي سنة ١٩١٧ كانت الجيوش الألمانية متقدمة في فرنسا وبلجيكا، وكان الألمان قد هزموا روسيا للتو، وأوشكوا على حسم المعركة على الجبهة الغربية خصوصًا أن بريطانيا قد بدأت بمفوضات سرية مع الألمان لإنهاء الحرب.

لكن تدخل اليهود بما يمتلكونه من سلطة ولوبيات وأقنعوا البريطانيين بمواصلة الحرب على ألمانيا مقابل وعد اليهود للإنجليز بدعمهم بالأموال وكذلك إدخال أمريكا بالحرب بجانبهم، ومن جانبها تعهدت بريطانيا لليهود بإعطائهم أرض فلسطين موطنا لهم (وعد بلفور ١٩١٧).

وكذلك عمل اليهود على ضرب الجبهة الداخلية لألمانيا ونشر الفوضى والاضطرابات داخلها عبر التلاعب بسعر صرف العملة زيادة اسعار السلع الاساسية والتحريض على الحكومة عبر الصحافة التى يسيطرون عليها، مما تسبب في شلل داخل البلاد وانهيار المجهود الحربي لألمانيا وبالتالي الهزيمة في الحرب وهو ما اعتبره الألمان طعنة من الخلف من قبل اليهود.

- السبب الأخيرة (وهو الأهم والأخطر على الإطلاق) هو تأثير اليهود على سيكولوجية الألمان، فقد زرعوا فى الصحافة والإعلام والمسرح والأدب ثقافة الانحطاط الخلقي، فأباحوا الزنا والشذوذ الجنسي وعملوا بالاتجار بهما بالإضافة إلى عملهم على تحقير من الألمان وتشويه تاريخهم مما جعل الكثير من الألمان يحتقرون انفسهم ويفقدون الثقة بأنفسهم بسبب الدعاية اليهودية، هل يكفيك هذا يا كاسترأم أزيدك؟

كان وجه الأخير محتقنًا بشدة، فهو على علم بكل هذا بل شارك في جزء كبير من تنفيذههو نفسه.

- سيد إيخمان هذا ما تريده.

ناوله كاستنر حقيبة صغيرة في هدوء، وقال مردفًا:

ـ نحن كلنا نعمل في اتجاه واحد بالفعل شئنا أم أبينا.

ابتسم إيخمان وهز رأسه موافقًا وقال:

ـ إلى اللقاء يا عزيزي.

ـ وهنا كان على إيخمان خوض مغامرة جديدة للعودة إلى بلاده مرة أخرى.

القاهرة 2017

قسم شرطة الموسكي.

دخل فريد إلى أروقة القسم متجهًا مباشرة إلى مكتب مأمور القسم، وما أن نقل الجندي الواقف على الباب بطاقة هوية فريد إلى المأمور حتى هم الأخير إلى استقباله عند الباب مرحبًا ومهللًا.

جلس فريد على فوتيه رث يحتل أحد جوانب مكتب المأمور الذي يحمل رتبة عقيد، والذي جلس بدوره قبالة فريد بعد أن طلب القهوة لكليهما وقال:

ـ مرحبًا بسيادتك في قسمنا المتواضع، لعل الزيارة في خير؟!

ابتسم فريد رغم ملامحه الصارمة وقال:

ـ خير بإذن الله، أن لي خدمة أود أن تسديني إياها؟

ـ هل هي شخصية أم رسمية؟

قالها المأمور الذي ارتسمت على وجهه علامات المساومة فالتقطها فريد بفطنته وقال وهو يميل للأمام باتجاه المأمور قائلًا:

ـ بحسب ما تريد وتفضل، أنا شخصيًا أفضل الخدمات الشخصية والابتعاد عن الرسميات؟

شعر المأمور بغصة في حلقه فهو يعرف طبيعة هذا الحديث المبطن بالرسائل لكنه تمالك قائلًا:

ـ على حسب نوع الخدمة التي تريد؟

ـ منذ خمسة عشر عامًا مضت توفي في دائرة القسم شخص ما تحديدًا ١٩٩٢ بفندق شعبي بمنطقة العتبة؟

مط المأمور شفتيه قائلًا:

ـ هذه فترة طويلة، كما أن تلك الفنادق اللعينة تعج بالمشردين والعجزة وكثيرًا هي تلك الحوادث!

تنهد فريد وقال:

ـ لقد كان ضابط ألماني ينتحل صفة مصري مسلم.

شخص المأمور ببصره قليلًا قبل أن يقول:

ـ لم اسمع بمثل هذا الأمر مسبقًا!

ـ وها أنت سمعت الآن وكل ما عليك أن توصلني لمحضر الحالة لهذه الواقعة؟

ـ لكن هذا أمر شديد الصعوبة فدفاتر هذه المدة قد لا تكون هنا، كما أن بعض الأوراق قد تلفت أثناء أحداث يناير ٢٠١١ كما تعرف!

اكتست نبرة فريد بحدة وهو يقول:

ـ إذن ليكن الأمر بشكل رسمي يا سيادة العقيد؟

ـ ابتلع المأمور ريقه بصعوبة فرغم أنه أعلى رتبة من محدثه لكنه يعلم جيدًا إلى أي جهة ينتمي، وماذا يمكن أن يطاله أن قصر في هذا التعاون.

ـ حسنًا لحين تناول قهوتك ربما نكون قد وجدنا حلًا.

دخل جندي ريفي بصينية تحمل كوبين من القهوة وضعها على طاولة مستطيلة تتوسط فوتيهين رثين في ركن حجرة المكتب، في حين خرج المأمور من المكتب لعشردقائق كاملة قبل أن يعود مبتسمًا متهلل الأصارير وهو يقول كأنه يهتف:

ـ لقد عثرت على شيء قد يفيدك، رجاء اتبعني.

انطلقا عبر أروقة القسم متجهين إلى سلم خلفي قديم يقود إلى بدروم رطب له رائحة كريهة منفرة تصدر من حجز القسم وعبر ممر رطب قذر سارا لعدة أمتار قبل أن يدخل المأمور إلى حجرة تشبه الأرشيف لكنها غير منظمة بالمرة وخلف أكوام من الدفاتر يقف صول شرطة عجوز خلف نظارة طبية سميكة مسكين ألقوا به وبثوبه الرسمي خلف تلال الأوراق وكأنه في زنزانة فردية!

عم سمير من أقدم الصولات في القسم وهو قاب قوسين أو أدنى من سن التقاعد، وهو الآن مسؤول عن الأرشيف، والمفاجأة أنه كان حاضر لذلك الحادث الذي ذكرته!

نظر فريد إلى الصول سمير مندهشًا وقال:

ـ هل حقًّا لديك معلومات عنها؟

سعل عم سمير بشدة ربما بسبب كم الأتربة المتوفر بغزارة داخل هذا القبو قبل أن يقول بصوت متهدج:

ـ نعم وقتها كنت عسكري أقوم بكتابة المحضر وأجمع الأحراز وقد انتقلت وقتها مع الضابط إلى بلاغ عن وفاة شخص مسن بفندق شعبي بشارع بورسعيد، وقد ثبت موته طبيعيًا دون تدخل يذكر، ولكن ما لفت انتباه الجميع وقتها أن هذا العجوز والذي كان مشهور أنه مصري مسلم قد اتضح أنه أجنبي فار من شيء ما!

ـ من محاكمات النازية.

لم يلق سمير بالًا بجملة فريد واستدرج قائلًا:

ـ ووقتها قمت بجمع الأحراز، بعد تقرير النيابة.

أنهى سمير حديثه وقد كادت رئتاه أن تنفجرا من شدة السعال الذي استمر لنصف دقيقة كاملة قبل يلهث بشدة محاولًا التقاط أنفاسه.

قال فريد متسائلًا:

ـ هل يمكنك أن تتذكر ما هي هذه الأحراز التي كانت بحوزته؟

مط سمير شفتيه وقال:

ـ لا أتذكر أنها كانت تعني شيئا مجرد حقيبة وبعض الملابس وكاميرا.

صمت سمير قليلًا كأنه يتذكر شيئًا ما وقال:

ـ كل شيء مسجل في محضر الحالة، ولكن منذ عدة سنوات تم تسليم الأحراز لجهة أجنبية بناءًا على تعليمات صارمة.

قال المأمور الذي بدا شديد الاندهاش:

ـ جهة أجنبية! يبدو أن الأمر شيق حقًّا سأذهب ليأتوا لنا بالقهوة.

انصرف المأمور في حين شعر فريد بارتياح أكثر لعدم وجوده وهو يقول ل سمير:

ـ عم سمير، يجب أن أطلع على المحضر، وحتمًا هناك محضر آخر يشمل تسليم الأحراز؟

هز سمير رأسه موافقًا وقال:

ـ نعم يمكنني العثور عليهما.

لعدة دقائق كاملة غاص عم سمير خلف دفاتره وغيمة من الغبار تتصاعد في الغرفة وسعال سمير يتصاعد بشدة في حين غطى فريد أنفه بمحرمة ورقية محاولًا تجنب الغبار إلا أنه عطس عدة عطسات متواصلة.

وأخيرًا ظهر عم سمير من بين شبورة الغبار كأنه عفريت المصباح حاملًا دفترين ضخمين تناولهما منه فريد رغم كومة التراب عليهما وهو يسرع خارجا ويقول:

ـ شكرا شكرا عم سمير.

وفي طريقه إلى غرفة المأمور الذي استقبله مرة أخرى بحفاوة وقال:

ـ اعذرني لقد تأخرت عليك ولكن كان هناك بعض الأعمال على القيام بها، أتمنى أن تكون قد وفقت؟

جلس فريد وقد تعفر وجهه وهو يقول:

ـ أتمنى ذلك، ولكن ربما كوبا من القهوة المزدوجة سيساعدني على التركيز.

لم ينتظر رد المأمور الذي دق جرس استدعاء الجندي بالخارج عندما فتح الدفتر الأول الذي دون عليه عدة أرقام وتاريخ مميز أحوال أغسطس١٩٩٢.

قلب عدة صفحات حتى توقف عند إحداها فيبدو أنه قد وجد ما يريد.

بدأ فريد مطالعة المحضر الذي كتب بخط غريب حاول ترجمته بقدر ما استطاع متخطيًا الصيغ الرسمية المعتادة قبل أن يرتفع صوته وهو يقرأ:

ـ «ووجد بحوزة المتوفي حقيبة جلدية سوداء، كاميرا ياشكا، ملابس، عدد ٤ فيلم كاميرا لم يستخدم، أوراق شخصية بطاقة هوية وجواز سفر أجنبي، ألبوم صور...»

لم يكن في الأحراز أي شيء يثير تحفظ فريد فكلها أشياء عادية جدًا، وللوهلة الأولى شعر بالحيرة قبل أن يلفت نظره جزئية تشير إلى

سؤال الشهود والذين لم يتخط حديثهم عن جهلهم بحقيقة الرجل وأنه شخص طيب ومحبوب.... إلخ.

مرة أخرى لا شيء يفيده.

تناول فريد قدح القهوة التي قد تلاشت حرارتها تدريجيًا عندما استغرق في قراءة صحيفة المحضر قبل أن ينحي الدفتر جانبًا ويتناول دفتر آخر كتب عليه تاريخ آخر يرجع لعام ٢٠٠٩.

استغرق بعض الوقت قبل أن يصل إلى صفحة معنونة « تسليم وتسلم أحراز متوفي»..

وعندما قرأ اسم المتوفي علم أنه يقف أمام المحضر المطلوب.

لم يكن فريد يعول كثيرًا على هذا المحضر فهو يعلم مسبقا أن جهة تابعة للأمم المتحدة قد استلمت تلك الأغراض بعد مواجهات سياسية تتهم الحكومة المصرية بالتستر على مجرمي حرب، ودون اهتمام طالع فريد المحضر و....

ارتفع صوته فجأة وهو يقول:

ـ ألبوم الصور...إنه غير موجود في الأحراز التي تم تسليمها!

نظر إليه المأمور الذي كان يجلس خلف مكتبه متعجبًا، وقال:

ـ ألبوم؟ أي ألبوم؟!

نظر إليه فريد وقال دون أن يهتم بسؤاله:

ـ أريد سمير...عم سمير بسرعة؟

وما هي سوى دقائق حتى كان عم سمير الذي انحنى ظهره كان يقف أمام فريد الذي بادره متسائلًا:

ـ هل أنت واثق أن كل أحراز الرجل قد تم تسليمها؟

صمت سمير وهو يفكر لحظات وقال:

ـ نعم متأكد أنها كلها فأنا من جمعتها سابقًا كما أنني من سلمها أيضًا!

قال فريد وهو يتفحص وجه سمير العجوز وقال:

ـ عم سمير عليك أن تتذكر جيدًا؟

ـ صدقني هذا كل شيء فرغم سني إلا أن هذا الحادث خاصة.

صمت سميرفجأة قبل أن يبتلع ريقه ويقول:

ـ نعم هناك موقف غريب حدث وقتها!

قال فريد متلهفًا والمأمور يتابعهما بصمت:

ـ ما هو أرجوك خبرني به؟

قال سمير:

ـ يومها بعد أن كتبت محضر الأحراز كان وكيل النيابة يفحص كل شيء، لكنه توقف عند ألبوم صور وظل ممسكًا به حتى انتهى كل شيء، وعندما انتهينا طلبته منه لكنه طلب الاحتفاظ به، والضابط يومها قال لي أنه غير مهم، وبالفعل احتفظ به وكيل النيابة، ولكنني كنت قد أدرجته في الأحراز.

قال فريد محدثًا نفسه:

- هذا معقول جدًا رجل لا تفارقه الكاميرا مستحيل ألا يكون محتفظًا بالعديد من الصور، ولكن كل أحرازه بلا صورة واحدة، لكن السؤال ماذا وجد وكيل النيابة فيه ليحتفظ به مخالفًا القوانين؟!

منتصف أبريل 1945

قبو بقصر المستشارية الألمانية برلين.

عبر ممر جرانيتي بارد أسرع جوزيف مينيجل وبجواره أربيرت هايم وكأن أحدهم يلاحقهما، حتى وصلا بالنهاية إلى باحة جرانيتية مربعة متسعة في صدرها حجرة بباب سميك وقف عليه رجل ضخم الجثة قاسي الملامح متجهم الوجه، فكل شيء يوشك على النهاية الحتمية، وأصوات دانات المدفعية الروسية التي تسقط حول باحات مقر المستشارية تجعل الجدران الصلبة تهتز بشدة، وكل الأخبار الواردة تؤكد اقتراب سقوط برلين بأيدي الروس فهم قاب قوسين أو أدنى.

ألقى مينيجل التحية على الرجل سريعًا وهو يقول:

ـ مرحبًا هاينز...هل هو بالداخل؟

هز هاينز رأسه موافقًا وقال:

ـ إنه بانتظاركما منذ بضع ساعات.

طرق هاينز الباب الثقيل عدة طرقات ثم أدار تاج الباب فيدلف كلًا من مينيجل واربيرت ليجدا نفسيهما في حجرة واسعة في صدارتها عدة فوتيهات وأريكة، جلس عليها الفوهرر هتلر بجسده الصغير وشاربه الشهير، وعلى يساره جلست ايفا براون بشعرها الأسود القصير، كان الهلع باديًا على ملامحها الشاحبة كالموتى!

ـ على يسار هتلر جلس الدكتور فارنر هاسه نحيل أجلى الجبهة معقوف الأنف كمنقار نسر عجوز.

ألقى الرجلان التحية الرسمية فبادرهما هتلر قائلًا بنبرة ساخرة لا تخلو من مرارة:

ـ لقد كنت أسأل الدكتور هاسه حالًا عن أنسب طريقة للموت، ولقد نصحني بسم السيانيد، فما رأيكما؟!

كان السؤال مفاجأة حقيقية لهما، فمن المفترض أن وجودهما هنا يعني شيء آخر تمامًا.

تبادل مينيجل وهايم النظرات في توتر بالغ، في حين انطلق هتلر في ضحكة عصبية، سمع معها أنفاس ايفا التي عادة لا يسمع لها نفس في اجتماعات الفوهرر، فبدا كنحيب مكتوم لاحظه هتلر فرمقها بنظرة صارمة جعلتها تخفض رأسها إلى الأرض، فأردف قائلًا لدكتور فارنر هاسه:

ـ حسنًا سأفكر في الأمر أن كنت سأموت كفأر جبان أم فارس مقاتل.

وأشار إلى مسدس ضخم من طرازفالتر عيار ٧/٦٥ مم.

كانت الجملة بمثابة أمر ل فارنر هاسه بالإنصراف، وبالفعل انطلق الأخير مسرعًا بعد أن ألقى التحية النازية على عجل، وما أن اطمئن هتلر لانصرافه حتى أمرهما بالجلوس فكان مينيجل هو الأقرب فمال عليه هتلر كأنه يهمس إليه رغم أن أربيرت كان يسمعه جيدًا وهو يقول:

ـ أنتما تعلمان بالطبع ما فعله هملر وخيانته لي؟ كما أن الحرب باتت وشيكة على الانتهاء.

صمت لحظات وهو يعتصر شفته السفلية في مرارة، ثم يسترج قائلًا:

ـ الآن علينا الانتقال إلى الخطة التي طالما استعدينا لها فهل أنتما جاهزان؟!

تلعثم أربيرت قليلًا قبل أن يقول:

ـ ولكن ألا تخشى من أن يشي هملر بنا؟!

قال هتلر:

ـ منذ مدة وأنا تساورني الشكوك حول هملر خاصة بعد خطوة هنريش المجنونة وهبوطه المظلي ليسلم نفسه للإنجليز، ولهذا كنت قد كتمت عنه كل ما أحضره إيخمان من اليهودي كاستنر وأنا أثق بولاء ايخمان، كما أن الجزء

الذي يخصكما فلا أحد يعلم به سواي والأدميرال هيلموت فايدلينج قائد حامية برلين، ولهذا عندما جائني يطلب الإذن بالتحرك إلى الفرار لكنني رفضت ذلك فهو تغطية جيدة لنا كما أنه سيسهل سير العملية بعيد عن أعين هملر وأعوانه الخونة.

قال مينيجل:

- لقد اقتربنا بشدة ربما عدة أيام تكفي للوصول إلى ما نريد، وحرسا على تواصل العمل أنتقلنا من أوشفتز إلى معسكر كروس، كما أن غواصاتنا قد نقلت ما توصلنا إليه، حتى إذا لم نستطيع الوصول لأي سبب فيمكن لعلمائنا هناك استكمال المسيرة!
- وأنا يا سيدي قد احتفظت بنسخة من كل شيء عن العملية وكذلك الخرائط على مايكروفيلم.

هز هتلر رأسه وتنهد بارتياح قبل أن يقول:

- اسمعاني جيدًا كل شيء يعتمد على تجربتكما، فحتى ما حصلنا عليه من اليهودي أدلف كاستنر، بدونكما لا يعني شيء على الإطلاق، سأمهلكما يومان قبل أن أتحرك وأعطي هيلموت فايدلينج الإذن بالهرب.

تبادل أربيرت ومينغيل النظرات وعيناهما تحملان الكثير من الأمل.

القاهرة 2017

ـ مكتب قائد الجهة الأمنية السرية.

جلس فريد في المقعد المقابل لقائده الذي أمسك بيديه عدة أوراق يقلب فيها قبل أن يقول لفريد وهو ينحي الأوراق جانبًا:

ـ وفيما سيفيدك هذا يا فريد؟

تنحنح فريد وقال:

ـ كل الأدلة يا سيدي تشير إلى شيئين الأول أن مصور هاوي لا تفارقه الكاميرا والتي هي بحد ذاتها احدى عجائب الرجل، فمعظم مخابرات العالم تطارده وعلى رأسه الموساد، ورغم ذلك لم يتغلب على هوايته، ومع ذلك لم يعثر معه على صور، ونكتشف أن وكيل النيابة أصر على الاحتفاظ بها فما الشيء الذي وجده فيها؟!

- الشيء الثاني أقوال الشهود كانت تشير إلى حقيبة جلدية كانت لا تفارقه ورغم ذلك لم يأت ذكرها في المحضر ولا على لسان الصول الذي حرر المحضر؟!

أشار القائد إلى الأوراق وقال:

- لكن هناك ضمن الأحراز حقيبة؟!

ابتسم فريد وقال:

- هذا صحيح لكن يا سيدي أقوال الشهود تشير إلى حقيبة أخرى أكبر حجمًا.
- وما الخطوة القادمة؟
- سأحاول الوصول إلى وكيل النيابة هذا وأعرف ماذا وجد، ولكن أولًا يجب أن أعرف إلى أي خطوة وصلت تلك الأجنبية؟

ضحك القائد وقال:

- لحظات وستعرف كل شيء يا فريد.

تعجب فريد قبل أن يطرق الباب ثم يظهر معتز السخاوي أستاذ التاريخ بالجامعة.

رحب به القائد كما حياه فريد دون أن يعرفه فقدمه القائد قائلًا:

- دكتور معتز السخاوي الـ.

قال فريد مقاطعًا وقد ارتفع حاجباه بدهشة:

- أليس هو من؟!

ضحك معتز وقال:

- نعم أنا صديق سارة كاستنر.
- ولكن؟!

قال الرئيس مبتسمًا:

- لقد أتى إلينا الدكتور معتز بقدميه مبلغًا عن صديقته سارة فلقد شك في أمرها منذ اللحظة الأولى.

قال معتز بحرج:

- إن سارة كانت حب....احم احم...كانت تربطنا علاقة أثناء الدراسة انتهت من ناحيتها أما أنا فلقد تتبعت أثرها حتى وأنا هنا بمصر، وآخر ما توصلت إليه أنها تعمل صحفية بالنيويورك تايمز، فتتبعت مقالاتها ولقد لاحظت مدى تعاطفها مع اليهود وخاصة الفكر الصهيوني، وفجأة تلقيت اتصالًا منها ينبئني بحضورها وطلب مساعدتي.

ابتلع معتز ريقه قبل أن يقول متوترًا:

- في البداية لم أكن أشك في شيء حتى اختلفنا سويًا وبعد افتراقنا بالقاهرة زارتني بالجامعة، وعند سؤالها عن مهمتها تحدثت عن ضابط ألماني عاش في مصر خلال النصف الثاني من القرن الماضي اسمه.....
- أربيرت هايم.

فغر معتز فاه وفريد يذكر الاسم أمامه في بلاهة في حين ابتسم الرئيس وقال لمعتز:

- الرجاء أكمل لنا القصة وستفهم كل شيء لاحقًا.

نقل معتز ناظريه بين فريد ورئيس الجهاز قبل أن يتنهد بعمق ويقول:

- ادعت وقتها أن هدفهم أو هدفها العثور على الكنوز النازية وأن هذا الرجل كان عنده سر هذه الكنوز.

قال الرئيس متسائلًا:

- ولكن ماذا أثار شكوكك وجعلك تقوم بالابلاغ عنها؟

ابتسم معتز وقال:

- إنني أستاذ في التاريخ المعاصر ومن أولى اهتماماتي فترة الحرب العالمية، وأربيرت هايم واحد من أكثر الاسماء الشهيرة التي لا تخفى على قاريء مجد في التاريخ النازي أنه طبيب الموت كما كانوا يلقبونه هو طبيب مشهور بتجاربه الدموية والبشعة على المعتقلين في معسكرات النازي، فما شأن طبيب بتخبئة الكنوز الألمانية وهي أمر معروف، هذه نقطة. أما الثانية وقد فاتت على عقل سارة أن هذه الكنوز قد وجدت فعلًا فقد عثر رجل على قطعة أثرية تقدر ب ٥٠٠ مليون دولار وبعدها استطاع هانز غلويك وهو جامع للذهب والماس بتحديد أماكن الكنوز وهذا شيء معلن ومعروف، وبربط كل هذه الأحداث ثار الشك في نفسي فشعرت بشبهة في الأمر.

قال الرئيس:

ـ وفي رأيك ما هو السبب الفعلي؟

مط معتز شفتيه وقال:

ـ الحقيقة أن العلاقة بين اليهود والنازية، علاقة متشابكة ومعقدة ولا يمكن التنبؤ بما تحمل خفاياهم، فرغم ما يذاع في الإعلام والكتب عن البغضاء والعداء، إلا أن النازيون قد عملوا منذ البداية على تحقيق اهداف الصهيونية بقصد أو دون قصد، فلقد قاموا بتهجير اليهود قصرًا إلى فلسطين مما ساعد في تحقيق وعد بلفور والذي نتج أيضًا عن علاقة اليهود بهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

قال فريد:

ـ إذن علينا التحرك قبلها والوصول إلى السر.

قال الرئيس:

ـ هناك معلومة يجب أن تعرفاها، ومن المفترض سريتها لكن ما دام الدكتور معتز قرر المساعدة فيجب أن يعرفها هو أيضًا.

انتبه إلى الرئيس بشدة وقد بدا التوتر على وجه معتز تحديدًا، والرئيس يقول:

ـ لقد رصدت أجهزتنا دخول عناصر مخابراتية على أعلى المستويات من الموساد والcia الأمريكية.

جحظت عينا كليهما دهشة عند سماع تلك المعلومة الأخيرة في حين لم يمهلهما الرئيس ليسترد قائلًا:

ـ كما أنكما ستعملان دون أي تدخل منا.

تلعثم معتز قليلًا قبل أن يقول:

ـ لكن ظننت أن دوري قد انتهى هنا عند هذه النقطة فلم أكن أخطط للإشتراك في عملية مخابراتية!

كان وجه فريد ممتقعا فهو بطبيعته لا يحبذ مشاركة المدنيين أي عمليات، وقد بدا عليه ارتياح كبير عندما قال معتز جملته، إلا أن رئيس الجهاز قال:

ـ سيد معنز بالطبع لك مطلق الحرية في القبول أو الرفض، ولكن يجب أن تعلم إننا نحتاج متخصص مثلك من ناحية كما أننا نعتقد أن هناك ما قد يهدد أمن بلادنا وانت كوطني تحب بلادك يجب أن تساعدنا، كما أنك الوحيد الذي يمكنه الاقتراب من سارة دون أن تثير شكوك أحدهم، وأنت رغم كل ذلك لك مطلق الحرية.

كان حديث الرئيس مؤثرا جدًا في معتز وبرغم ميوله المعادية للنظام الحاكم لكن هذا بالطبع لم يؤثر على عشقه لبلاده من ناحية، ومن الناحية الأخرى طبيعته كباحث في التاريخ تنبئه أنه أمام فرصة لن تتكرر لاكتشاف سر نازي يهودي ربما تاه من بين صفحات التاريخ!

على العكس كان فريد يتمنى أن يكون الشعور بالخطر قد طغى على قرار معتز فيرفض، إلا أن الأخير صدمه وهو يقول بثقة:

ـ حسنًا لنفعلها.

شعر الرئيس بالارتياح فلسبب ما يشعر أن معتز سيكون عظيم الفائدة لفريد! لكنه لم يكن يعلم أن عمليته لا تخص مصر فقط بل مصير البشرية كله.

1945 معسكر كروس النازي

ثارت حالة من التوتر بين حرس وأفراد العمل والضباط النازيون في معسكر كروس فالكل يتحرك بعصبية لإخلاء المعتقل الضخم خاصة مع اقتراب القوات الروسية، والسيطرة على برلين العاصمة النازية.

وفي حجرة مربعة ضخمة احتوت على بعض المعدات البحثية كان كلا من أربيرت هايم وجوزيف مينغيل يقومان بجمع بعض الملفات والأوراق على عجلة من أمرهما.

استغرق الأمر بضع دقائق قبل أن ينظر مينيغل إلى أربيرت قائلًا:

- اسمعني جيدًا يا أربيرت، عليك أنت وحدك الاحتفاظ بكل النتائج فأنت مجهول بالنسبة لهم على عكسي فحتما سيلاحقونني بقوة.

هلع أربيرت بشدة وقال:

ـ ولكنهم ماذا ستفعل؟!

ـ لقد أعددت العدة للفرار من ألمانيا وعليك أنت أيضًا أن تسعى إلى ذلك فورًا.

ـ ولكن كيف سيمكننا الوصول فآخر وسيلة للنقل قد تحركت منذ ساعات والرفاق هناك سيحتاجون ما توصلنا إليه، كما أنه أمن ملاذ لكلينا!

صمت مينيغلي لحظات وقال:

ـ علينا البحث عن باب آخر، لقد اطلعنا على الخرائط وهناك عدة أبواب أخرى ربما يسعدك الحظ وتصل إلى أي منها قبل أن يكتشفون أمرك.

ـ ألن تحاول الوصول؟

تنهد مينيغلي بعمق وجذب مقعدًا استرخى عليه واشعل سيجارته التي نفث دخانها بعمق وقال:

ـ لقد سئمت دوري كترس صغير في قلب تلك الآلة العملاقة التي تدير شئون البشرية، يكفيني هذا القدر يا عزيزي... يكفي.

قال أربيرت:

ـ لكن واجبنا المقدس تجاه الأفيرال!

ضحك مينيغل حتى سعل بشدة فاستحال وجهه ككتلة من الدماء قبل أن يسترد أنفاسه ويقول:

ـ اسمعني يا صديقي جيدًا، لقد كنت أكثر التصاقًا منك بالجمعية، فلا تعتقد إننا وحدنا من ينتظر الأفيرال، بل هناك من يعدون العالم وبقوة له، حتى حربنا التي راح فيها زهرة شبابنا، كما فقد فيها العدو خيرة أبنائه، أو حتى هؤلاء اليهود، كلها أمور مخطط لها وبدقة وحتى هزيمتنا كانت ضمن مخطط طويل المدى، قمنا فيه بواجبنا وأدينا دورنا كما يجب، لهذا ظن الفوهرر أنه مرحب به هناك لأنه في حقيقة الأمر جزء من المنظومة.

لم يع أربيرت أغلب حديث جوزيف مينيغل ولو أنه تعجب كل ذلك العمق والسكينة التي يتحدث بها أبشع طبيب عرفته البشرية على مر العصور.

سحق مينغيل سيجارته ومد يده مصافحًا أربيرت بحرارة وقال:

ـ وداعًا يا صديقي...وداعًا.

اهتز المكان فجأة منذرًا بقذيفة سقطت على مقربة من المعسكر.

ترقرقت دمعات قليلة في عيني أربيرت الزرقاوتين...قبل أن ينصرف مينيغيل ويغيب للمرة الأخيرة عن عيني أربيرت هايم.

وعلى مسافة آلاف الأميال من معسكر كروس كانت الغواصة الألمانية تشق طريقها في أعماق المحيط متخفية عن اعين رادارات الحلفاء الذين وضعت الحرب اوزارها بالنسبة لهم بعد وصول القوات الروسية إلى مقر المستشارية الألمانية...

كان طاقم الفواصة يعمل بكل ما أوتي من قوة فكل ما عنده من معلومات عن حمولته لا تتخطى كون الغواصة تنقل أشياء شديدة السرية لم يسمح حتى للطاقم بمعرفة ماهيتها!

المعادي القاهرة 1992

جلس مختار الشيمي وكيل النيابة الشاب ذو الثلاثون عامًا بغرفة المكتب الملحقة بمنزل والديه حيث إنه لم يتزوج بعد وما زال مقيمًا مع والده محفوظ الشيمي الأستاذ السابق بجامعة بيترسبيرج الروسية والذي تجاوز الستون من عمره منذ عدة أشهر وقد توفت زوجته في روسيا منذ عقدين من الزمان تاركة زوجها وطفلها ذو العشر سنوات مما اضطر والده للعودة إلى مصر والاستقرار مع طفله الذي صار هو كل حياته.

استغرق مختار كثيرًا وهو يقلب في ألبوم صور أمامه، وعلى ملامحه علامات التعجب فما كان يراه غريب بحق.

لأول وهلة كانت الصور أغلبها لمعالم القاهرة العتيقة مثل منطقة الجمالية وشارع المعز وقلعة صلاح الدين، كما أن هناك صورًا لبعض المدن الأوربية، يبدو أن الرجل قد زارها مسبقًا، لكن ما لفت

نظره وجعله يستمر كثيرًا في التأمل هي مجموعة كبيرة من الصور تتخطى العشرون كلها لمنطقة واحدة، بل نقطة واحدة رغم تعدد الزوايا والمسافات فكلها لنفس المكان دون تغيير.

ربما ما لفت نظر مختار أكثر وجعله يعتقد بوجود سر هي تلك الورقة المطوية التي وجدها وقد أخفاها عن عين الضابط والتي كانت عبارة عن خريطة مرسومة بخط اليد، كل هذا لم يكن عجيبًا جدًا إلا أن هناك علامات مميزة باللون الأحمر وضعت على خمس نقاط معينة على الخريطة، إحدى هذه العلامات على نفس المكان الذي تم تصويره!

اسنغرق مختار في التفكير والتعجب حتى أنه لم يلحظ والده الذي طرق الباب قبل أن يدخل فينظر إلى ولده متعجبًا:

ـ فيما كل هذا الاستغراق؟!

انتفض مختار من مجلسه لوهلة قبل أن يقول بصوت مبحوح:

ـ ابي! هل تقف منذ فترة؟!

ضحك الوالد وهو يسحب مقعد ويجلس أمام ابنه ويقول:

ـ ليس الكثير من الوقت لكن سبق وأن ناديتك كثيرًا لكنك مستغرق إلى أذنيك فيما بين يديك فلم نسمعني!

ابتسم مختار متحرجًا من والده وقال:

ـ إنني آسف حقًّا يا والدي.

ـ لا عليك.

أشار محفوظ إلى الأوراق وقال:

ـ هل هي قضية محيرة؟

مط مختار شفتيه وقال:

ـ ليست قضية بالمعنى الحرفي لكنها محيرة فعلا!

اعتدل الأب في مجلسه، فجملة ابنه الأخير أثارت فضوله حقا، فقال:

ـ هل يمكنك إخباري بالأمر فربما لعجوز مثلي أن يكون ذا فائدة ولو لمرة واحدة فقط؟

ضحك مختار وقال مداعبًا:

ـ بل للعجوز فوائد أكثر مما تتخيل.

ضحك كليهما قبل أن يقول محمود لابنه:

ـ ها... ماذا هناك؟

نأول مختار والده ألبوم الصور وهو يشير إلى إحداها ويقول:

ـ هل تلاحظ شيء في هذه الصورة؟

وضع محمود نظارته المعلقة على صدره، ونظر جيدًا إلى الصورة ثم مط شفتيه وأشاح بوجهه قائلًا:

ـ إنها صورة عادية جدا، ربما أحد الهواة التقطها لمعلم أثري شهير!

ـ عليك رؤية الصور التالية.

قلب الأب صفحات الألبوم وقد بدت الدهشة عارمة على وجهه وهو يلاحظ كل تلك اللقطات لنفس الهدف فرفع رأسه قائلًا:

ـ إنه شيء عجيب فعلًا اهتمام هذا المصور بهذه النقطة تحديدًا! ولكن السؤال لماذا هذا الاهتمام كله؟!

نأول مختار والده الورقة التي تحتوي الخريطة وهو يقول:

ـ ربما هذه قد تفيدك؟

عدل الأب من وضع نظارته قبل أن يدقق النظر في الخريطة ليفغر فاهه بشدة دهشة قبل أن تستحيل نظرته إلى هلع وهو ينظر إلى مختار متسائلًا:

ـ من أين أتيت بهذه الأشياء؟!

تعجب مختار من ردة فعل والده التي بدت مبالغ فيها، فهو يعلم أن الأمر مثير للحيرة لكن ردة فعل والده أكبر من كونها مجرد حيرة أو تساؤل مجرد، لكن مختار أجاب والده:

ـ تلك بعض أحراز رجل عجوز وجد ميتا بأحد الفنادق الشعبية.

ـ هل هو مصري؟!

قال مختار بحيرة:

ـ حقيقة لا أدري على وجه الدقة، فالرجل غامض جدًا، فأوراقه تدل على أنه مصري مسلم، وكذلك أقوال الشهود، إلا أن ملامحه ليست كذلك، كما أننا وجدنا بحوذته أوراقا ثبوتية قديمة تدل على أنه أجنبي!

بدا الاهتمام واضحا على ملامح الأب وهو يسأل قائلًا:

ـ هل هو ألماني؟

تعجب مختار من والده بشدة فهو قد استطاع قراءة لفظة Germany المطبوعة على جواز السفر!

لم يمهله والده الرد وقال:

ـ هو ألماني حقًّا فبعض الملاحظات هنا مكتوبة بالألمانية، يمكنني تمييزها.

وأشار إلى الخريطة، فهز مختار رأسه موافقًا وقال:

ـ هو ألماني بالفعل فجواز سفره القديم ألماني فعلًا! ولكن هل تجيد الألمانية يا والدي؟!

هز الأب رأسه نافيا وقال:

ـ لا ولكن يمكنني تميزها بعض الشيء، غير أن هذه الخريطة ألمانية فأنا لدي فكرة عما تحتوي.

تراجع مختار في مقعده مذهولًا وقال:

ـ حقا؟!

هز محفوظ رأسه وقال:

ـ على ما أظن أن للأمر علاقة بما روته لي جارة قديمة كانت تقيم هنا عندما تطرق الحديث عن طبيب أجنبي كان هو الآخر جار لنا في المعادي!

قال مختار بلهفة:

ـ وماذا أخبرتك؟

استرخى محفوظ في مقعده كأنه يستعيد ذكريات بعيدة وقال:

- منذ زمن بعيد وتحديدًا في١٩٦٥ تقريبا، وكنت وقتها ما زلت أدرس الدكتوراه بجامعة بيترسبيرج ضمن البعثات التي أرسلتها حكومة عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتي، لكن والدتك رفضت السفر معي مما اضطرني إلى التنقل بين مصر وروسيا في إجازات محددة.

في واحدة من تلك الإجازات شعرت والدتك بوعكة صحية في وقت متأخر من الليل، وكانت المعادي وقتها منطقة شديدة الهدوء والسكينة خاصة في مثل هذا التوقيت المتأخر وبالطبع أنا بعيد عن مصر أغلب الوقت فلم أكن أعلم هل يوجد طبيب بالمنطقة أم لا... ولم يكن أمامي سوى الاستعانة بسيدة تدعى مارجريتا كانت جارة لنا، فسابقًا كنا نسكن في شارع عرابي، وكانت سيدة ودودة في معاملاتها، إلا أنني في حقيقة الأمر لم آكن ألفها وكنت أرى خلف عيناها الضيقتين وأنفها المدبب الذي دائمًا مل تعلو ارنبته نظارة طبية صغيرة، نظرات تثير الريبة واضف إلى ذلك أنك تقف أمام سيدة يهودية في تلك الحقبة التي كانت كل آلة الإعلام تصب جام غضبها عليهم، كانت مارجريتا من ضمن الذين رفضوا الهجرة وكانت دائمة القول من أراد أن يذهب فليذهب، أما أنا فمصرية وسأبقى إلى أن أدفن فيها!

كانت تقيم بالشقة المقابلة، فهرعت مسرعًا أطرق بابها بعصبية حتى رأيت الأضواء توقد في بيتها فسألتها إن كانت تعرف طبيبًا بالقرب من هنا؟

وكانت المفاجأة.

ضاحية المعادي

القاهرة 2017

لم تختلف شقة مختار كثيرًا عما كانت عليه في تسعينيات القرن العشرين سوى أن أثاثها بدا عليه عوامل الزمن مثل صاحبه الذي انحسر شعره بشدة إلى الخلف وقد اكتسى أغلبه باللون الرمادي رغم أنه لم يصل إلى الخمسين من عمره بعد!

جلس المستشار مختار الشيمي على مقعد من الخيزران زين شرفته متجانسًا مع شجرة اللبلاب التي غطت سور الشرفة كاملا بالإضافة إلى بعض أصايص الزرع التي امتلأت بنبات الريحان ذات العطر النافذ...

رشفة من قهوة تركية تصاعد أريج الحبهان والمستكة مع رائحة البن النفاذة جعلته يتلذذ وتعلو وجهه علامات المتعة وهو يطالع من

خلف نظارة طبية مخصصة للقراءة كتابًا قد انهمك في موضوعه حتى أذنيه!

لم يعكر صفو كل هذا سوى انتظاره لزائر قد يصل أي لحظة.

وبالفعل دق جرس الهاتف بصوته العتيق منبئًا بوصول الزائر المجهول!

كل شيء كان قد بدأ منذ الصباح الباكر عندما دق هاتفه المنزلي فهو من ذلك النوع الذي رفض رفضًا باتًا كل مظاهر التكنولوجيا الحديثة، وقد اعتنق فكرة أن الحداثة تهدد الصفاء والسكينة اللتان يفضل أن يستمتع بهما، وها هو يحيا وحيدًا يكتفي بنفسه صديقًا فلم يتزوج غير عمله الذي سرعان ما بات هو الآخر مصدر إزعاج فتقاعد مبكرًا مكتفيًا بمعاش صغير هو ما تبقى له من راتبه بالإضافة إلى مبلغ بسيط كعائد ادخاري يساعده على مغبة الحياة.

في الصباح تلقى اتصالًا مجهولًا من شاب طلب مقابلته، مختار من النوع الذي لا يفضل مقابلة مجهولين لكن المتصل استطاع أن يثير فضوله عندما ذكر له اسمًا يعرفه جيدًا «الخواجة طارق»!

لسنوات طوال ظن أن هذا الاسم قد دفن مع صاحبه ومع والده محفوظ الشيمي الذي مات منذ عشر سنوات مضت، لكن هذا الشخص الذي لم يقابله يومًا سوى والأخير جثة مهمدة والملقب بالخواجة طارق، ظل لسبع سنوات كاملة أنيس وحدته وشاغله الأكبر منذ حديثه مع والده!

نهض مختار بتثاقل متجهًا إلى الباب حتى فتح الباب ليجد أمامه معتز السخاوي وبصحبته سارة كاستنر.

رحب مختار بهما، وما أن استقر الجميع على طاقم صابون مذهب من الخشب تتوسطه طاولة مستديرة مزينة بمفرش من الحرير المشغول تعلوه قطعة من البلور المستديرة ومزهرية طويلة أنيقة.

كانت غرفة الصالون مربعة مريحة للنفس زينت جدرانها بلوحات جذابة منحولة عن أشهر اللوحات العالمية.

غاب مختار عدة دقائق قبل أن يعود بصينية وضع عليها كأسين من المياه الغازية.

ساد الصمت لحظات قبل أن يقطعه متخذا زمام المبادرة:

ـ سيد مختار ناسف بالطبع على إزعاجك، ولكن كان لدينا بعض الأسئلة بخصوص الشخص الذي ذكرت لك اسمه في مكالمتنا الهاتفية.

هز مختار رأسه علامة الإصغاء قبل أن يقول:

ـ ولكن من أنتما ولماذا تهتمان بهذا الأمر؟

هنا تدخلت سارة قائلة بإنجليزيتها:

ـ أنا سارة صحفية بالنيويورك تايمز وكنت أجري بحثًا صحفيًا حول الضباط النازيين الذين استطاعوا الفرار من محاكمات الحلفاء.

نظر إليها مختار متشككا وقال بالإنجليزية وإن كانت ركيكة نوعًا ما:

ـ ولكن ما أعلمه أن أربيرت هايم قد تمت تبرئته من محاكمهم، أليس هو من تسألون عنه؟!

تبادل معتز وسارة النظرات بحيرة، فيبدو أن مختار يعلم الكثير، وخاصة سارة التي تريد التحرك في أضيق الحدود، وقد شعرت بارتياح شديد عندما أخبرها معتز أنه قد علم عن طريق ضابط صديقه بقسم شرطة الموسكي أن وكيل النيابة المحقق في حادث الوفاة قد احتفظ بشيء قد يكون مهمًا لها، وهذا ما دفعها للمجيء هنا!

اعتدلت سارة في جلستها واشرأبت بعنقها إلى الأمام كأنها تحاول الاقتراب بوجهها لوجه مختار وقالت:

ـ هناك البعض ما زال يراه مذنبًا، وكذلك ما تجلى لاحقًا من معلومات يثبت جرائمه!

تراجع مختار في مجلسه متكئًا بظهره وهو يضع قدم على الأخرى ويقول: هل تقصدين اليهود؟

احتقن وجه سارة للحظات فهي تعلم الآن أنها في حضرة شخص يعلم الكثير، كذلك شديد الذكاء.

أما معتز فقد كان يشعر بالسعادة وهو يرى تلك المبارزة الكلامية بينهما.

قالت سارة مقتضبة الحديث:

ـ الأحكام ليست من صميم عملي، مهنتي هي البحث وعرض المعلومات فقط.

ابتسم مختار وقد استطاع تحجيم نظراتها الثاقبة فاعتدل قائلًا:

ـ وما المطلوب مني تحديدًا؟

قال معتز:

ـ لقد أخبرني أحدهم أنك كنت المحقق في وفاة طارق حسين؟

هز مختار رأسه موافقًا قبل أن يقول لمختار وكأنه لاحظ وجوده للمرة الأولى:

ـ هل أنت أيضًا صحفي؟

كان السؤال هذه المرة بالعربية رغم أنهم كانوا يتحدثون جميعًا الإنجليزية منذ بداية الحوار.

التقط معتز طرف الخيط وقال بالعربية محاولًا ألا يبدو على وجهه أي تعبيرات:

ـ لا تعطها أي معلومات.

كادت الدهشة أن تقفز بمختار من مقعده لكنه بقدرة أسطورية تمالك نفسه وتحكم في تعبيراته ليقول بالإنجليزية:

ـ مرحبًا بك في منزلي يا عزيزي... نعم أنا من قام بالتحقيق.

قالها مختار موجهًا حديثه لسارة التي قالت:

ـ اسمعني سيد مختار ليس لدينا الكثير من الوقت، كانت هناك أشياء لدى الرجل احتفظت بها لنفسك، أنا أريدها بأي سعر تريد.

تراجع مختار في مقعده متصنعًا الذهول وقال:

ـ هل تدفع الصحافة عندكم مبالغ كبيرة؟!

ـ سيد مختار يبدو أنك تملك الكثير من المعلومات، التي لم تنته بموت والدك الدكتور محفوظ الشيمي.

احتقن وجه مختار بشدة عند ذكر والده كما تفاجأ معتز بذكر سارة لوالد مختار!

ـ هل تعرفين والدي؟

قال مختار عبارته وهو يرمقها بنظرة متفحصة، ولكنها أشعلت سيجارتها ونفثت نفسًا عميقًا تابعت خلالها حلقات الدخان المتصاعدة وقالت:

ـ أنا صحفية محترفة وقد جمعت معلومات كافية عنك وبالمصادفة عرفت أن والدك كان أستاذًا في التاريخ متخصص في الميثولوجيا المعاصرة بالاتحاد السوفيتي السابق.

قال مختار:

ـ وهل تعلمين أنه قتل بسبب ما تريدينه مني الآن؟!

جحظت عينا كل من معتز وسارة عند سماع هذه المعلومة الأخيرة عما زفر مختار وقال:

ـ كان هذا منذ سنوات، عندما هاجم المنزل مجموعة مجهولة أردوه قتيلا بلا رحمة، في البداية ظنهم الجميع لصوصًا، لكن الغريب أن كل ما فقد هو عبارة عن ألبوم صور قديمة

فقط وبالطبع أغلقت القضية على لا شيء، ولم يعرف أحد الجاني.

قال معتز:

ـ وماذا كان بألبوم الصور ليشكل أهمية تجعلهم يقتلونه؟!

مط مختار شفتيه وقال:

ـ لا شيء يذكر مجرد صور تذكارية لبعض المعالم الأثرية احتفظت بها من موقع المعاينة.

قالت سارة بعصبية:

ـ هل هذا كل شيء؟ ألبوم صور فقط؟

هز مختار رأسه موافقًا.

كان معتز يشعر بالتوتر الشديد فهذا الباب قد أغلق في وجه مهمتهما ومضى يخط بيده على قطعة البلور التي زينت الطاولة ويزفر بشدة، وقد كان حال سارة أسوأ من ذلك عندما داعبت يداها شاشة هاتفها الذكي وقد احتقن وجهها بشدة قبل أن تنهض فجأة بعصبية وقالت لمعتز كأنها تأمره:

ـ هيا لنذهب، لا داعي لوجودنا هنا

لم تمض دقائق قليلة حتى كانت سيارة معتز تجتاز شوارع المدينة المزدحمة.

التزمت سارة الصمت وقد ملأ الغيظ ملامحها فكل أمالها قد انهارت، فما تعلمه حقًّا هو ما رواه مختار، فعندما هاجم الرجال

شقة مختار منذ عشر سنوات لم يعثروا سوى على ألبوم للصور يخص أربيرت هايم ولكن مختار لم يكن موجودًا وقتها، وقد كان أملها خاصة مع التعليمات باستخدام الطرق السلمية معه!

وخلف مقود السيارة كان معتز وعلى شفتيه ابتسامة حاول إخفاءها بقدر ما يستطيع.

المعادي 1965

ظل محفوظ بتوتر يقلب صفحات دليل الهاتف المطبوع، وقد شتتت صرخات زوجته المتألمة أغلب تركيزه.

الساعة قد تجاوزت الثانية فجرًا ومن المستحيل العثور على وسيلة مواصلات في هذا التوقيت، كما أن كل محاولاته لجلب طبيب إلى المنزل قد باءت بالفشل!

عاد محفوظ إلى حجرة زوجته محاولًا تهدئتها لكن الألم كان يفتك بجسدها، لم يجد محفوظ سوى حل أخير كان لا يتمنى اللجوء إليه.

وكالبرق انطلق إلى خارج منزله متجهًا إلى الشقة المقابلة وطرق الباب طرقات مسرعة صاخبة فهو يعلم جيدًا جارته مارجريتا وزوجها الصحفي البارز حتمًا نيام في مثل هذا التوقيت.

دقائق مرت كساعات طويلة وأذناه تلتقطان تأوهات زوجته العليلة، حتى لاحظ أن أحدهم قد استيقظ توًا.

سمع من الداخل صوت العجوز تتساءل عن الطارق في مثل هذا الوقت؟

ـ أنا محفوظ الشيمي جارك بالشقة المقابلة.

كان يعلم أن مارجريتا طفيلية تعشق الصداقات التي تتيح لها الاطلاع على الأسرار المنزلية وهذا ما لم يكن يحبه محفوظ بالإضافة إلى كونها يهودية وهذا في حد ذاته سبب أدعى مع تلك المناوشات السياسية بين مصر وإسرائيل والعداء الواضح خاصة بعد عدوان الأخيرة من ثمان سنوات، ولهذا كان حاسمًا مع زوجته باجتناب هذه السيدة رغم محاولاتها التقرب من الزوجين، إلا أنه الآن في أمس الحاجة لها.

فتح الباب لتظهر من خلفه سيدة تجاوزت منتصف العقد السادس من عمرها قد أسقطت نظارتها الطبية السميكة على أرنبة أنفها.

قال محفوظ متحرجًا:

ـ آسف سيدتي على الإزعاج لكن زوجتي مريضة جدًا وأحتاج إلى طبيب فورًا ولا أعرف أي أحد بالجوار.

ابتسمت مارجريتا وقالت وهي تهم خارجة من شقتها:

ـ لا بأس، اتبعني.

صعدا طابقين إضافيين قبل أن تتوقف أمام إحدى الشقق وتقرع الجرس بإلحاح ليسمعا صوتًا بدا متحشرجًا من الداخل ذا لكنة أجنبية قائلًا:

ـ من بالباب؟

ـ أنا مارجريتا دكتور دبوس.

نظر إليها محفوظ متعجبًا من الاسم وقال ساخرًا:

ـ دبوس؟!

كتمت مارجريتا ضحكتها عندما فتح الباب ليجد أمامه رجل في منتصف الستينات من عمره أجلى الجبهة ذا عينين بلون الزرع.

لفت نظر محفوظ يد الطبيب اليمنى التي قفزت لتختفي خلف ظهره، لكن محفوظ استطاع أن يلاحظ مسدس صغير أخفاه الطبيب بسرعة عندما وقع نظره على مارجريتا.

لحظات وكان الثلاثة بشقة محفوظ والطبيب يفحص زوجة الأول فمال محفوظ على أذن مارجريتا متسائلًا:

ـ من هذا الرجل ولماذا يحمل مسدسًا؟!

همست مارجريتا وقد كانا يقفان في ركن بعيد من الحجرة قائلة:

ـ إنه يخشى الموساد فهو ألماني نازي هارب.

ثم ابتسمت بخبث وقالت مستدركة:

ـ ولا أحد يعلم هذه الحقيقة سواي.

كانت مفاجأة لمحفوظ حقيقة فكل المعلومات تشير إلى أن أمريكا الجنوبية كانت الهدف الأول لأغلب الفارين من محاكمات الحلفاء.

فهمت مارجريت حيرته وكأنها قرأت ما يدور بخلده وقالت:

ـ لقد أخبرني زوجي أنهم كثيرون هنا لكن وجودهم يعد سرًا.

كان الدكتور دبوس في هذه اللحظة قد حقن الزوجة بمسكن قوي قبل أن يقترب منهما وعلى وجهه ابتسامة ودودة هادئة تنبئ عن طيبة صاحبها بعكس ما كان يتصوره محفوظ عن النازيين وقال:

ـ لقد حقنتها بمسكن سيجعل الألم يهدأ وسوف تنام لبضع ساعات.

شكره محفوظ وهم ينسحبون من الغرفة فأصر الأخير على تناول واجب الضيافة، إلا أنهما رفضا وقد وعداه بالمرور مرة أخرى للاطمئنان على الزوجة.

وبعد عدة أيام كانت علاقة صداقة بدأت في النمو بين محفوظ وبين الطبيب كارل ديبوش أو كما يعرفه المصريون الخواجة دبوس!

في هذا اليوم تحديدًا بعد منتصف النهار بقليل، شعر محفوظ بحركة غريبة في العمارة السكنية التي تقع شقته بها، كما تعالت أصوات سيارات الشرطة لي الشارع، مما دفع محفوظ للخروج من شقته لاستطلاع الخبر، وكانت مارجريتا خير من ينقل الخبر فقالت:

ـ لقد استلم الخواجة دبوس طردًا مفخخًا! أحدهم يحاول قتله.

كانت مفاجأة بالنسبة لمحفوظ فكارل ديبوش من الشخصيات الهادئة طيبة المعشر حسن الجيرة يحظى باحترام وحب الجميع!

حتى محفوظ الذي من الصعب أن يصادق أحدهم، أصبح يعتبر ديبوش صديقًا مقربًا ويبدو أن الأخير كان يتعامل مع محفوظ من نفس المنطلق.

وكواجبه تجاه صديق وجار كان على محفوظ التوجه إلى شقة ديبوش بعد هدوء الأجواء وانسحاب رجال الشرطة.

في شقة كارل ديبوش العجوز الذي يقيم وحيدًا رشف محفوظ رشفة من قدح القهوة وهو يتابع وجه كارل ديبوش الشاحب وملامحه الشديدة التوتر وبدت عيناه زائغتين:

ـ ماذا هناك يا كارل؟ من الذي حاول قتلك؟

تردد ديبوش قليلًا ودفع بكأس من النبيذ مرة واحدة إلى جوفه قبل أن يقول:

ـ اسمعني جيدًا يا محفوظ.

ـ كلي آذان صاغية!

صب ديبوش لنفسه كأسًا أخرى ارتشف منها رشفة محاولًا تهدئة نفسه قبل أن يقول:

ـ أنا اسمي الحقيقي ليس كارل ديبوش، بل أنا الدكتور هانزل أيزل، ألماني وهذا سري الذي حاولت كتمانه لسنوات طويلة حتى أنني كدت أن أنساه تمامًا منذ استقريت في

مصر! لكن يبدو أن هذه الحقيقة ستظل تطاردني ما حييت فهناك حتمًا من يعلم حقيقتي ويحاول قتلي!

كان محفوظ لديه خلفية بحقيقة أيزل عن طريق اليهودية لكنه أثر كتمان الأمر حتى يأتي الرجل بآخر من عنده، خاصة أن حالته النفسية كانت شديدة السوء فقال محفوظ متعجبًا:

ـ ولكن لماذا أنت تحديدًا يا ديبوش فهناك العديد من الألمان هنا في مصر، بل إن بعضهم يعمل بهيئات شديدة الخطورة!

ـ ما سأقوله الآن يجب أن يدفن معي ولكن أشعر بذلك الثقل على كاهلي الذي ناء بما يحمل، كما أنك لسبب ما أشعر بأنك أهل لثقتي هذه، كما أنك ستعي جيدًا ما سأقوله لك.

هز محفوظ رأسه مع ابتسامة عرفان وشكر لهذه الثقة التي حازها من الألماني العجوز الذي قال مردفًا:

ـ لقد كنت واحدًا من هؤلاء القريبين من جوزيف مينيغل الشهير ولكن محاكم الحلفاء برأتني مما حيك ضدي من قصص تعذيب وخلافه كما تعرف.

اجترع ديبوش دفعة كبيرة من الخمر حتى احتقن وجهه بشدة قبل أن يستدرج قائلًا:

ـ لكن الأمر لم ينته، فقربي لمينيغيل بحكم عملي في معسكرات الموت جعلني هدفًا للمنظمات اليهودية.

ـ بسبب معسكرات الموت وما حدث لليهود بداخلها؟

ضحك إيزل ساخرًا وقال:

ـ هذا ما يجيده اليهود قلب الحقائق.

رفع محفوظ حاجبيه دهشة وقال:

ـ وما الحقيقة إذن؟

ـ الحقيقة أن حربنا قدمت أكبر خدمة لليهود في التوصل إلى هدفهم بل قد قامت حكومتنا بتهجير مليوني يهودي إلى الأرض العربية.

ـ ولكن ما قصة الهولكست؟

ـ نعم تعرض بعض اليهود للتعذيب ولكن أيضًا الغجر والمعاقين وغيرهم، وذلك لأسباب سياسية وأيدولوجية، لكن اليهود ضخموا كعادتهم ما حدث هناك وجعلوا من أنفسهم ضحية لخدمة قضيتهم...، ولكن المهم في الأمر ما سأخبرك به الآن.

ـ هات ما عندك؟

ـ بأوأمر من هتلر كان مينغيل وأحد مساعديه يعملان على مخطط عملاق وهذا المخطط مبني على سر كان اليهود هم من يحتفظون به، لكن بمساعدة أحدهم لأحد رجال الرايخ استطاع هتلر الحصول على السر، وإعطائه للدكتور مينيغل الذي عمل على تجربة شديدة السرية.

ـ وما هذه العملية؟

مط ديبوش شفتيه وقال:

ـ لا أحد سوى القليلين يعرفون الحقيقة، لكن كان هناك بعض الأحاديث الجانبية تتحدث عن خريطة سرية، لبعض الأماكن لم أعلم إلى ما تشير هذه الأماكن تحديدًا، لكن كثيرًا ما جاءت أوامر بنقل بعض المعتقلين على متن غواصات حربية إلى مكان مجهول كان هؤلاء السجناء يقومون بدور فئران تجارب للدكتورمينيغل في تجارب سرية طبية كل ما أعلمه أنها تخضع لعلم الوراثة! وفي الأيام الأخيرة من الحرب كان مينيغيل ومساعده ومعهما ممرضة شابة قد نفذ فيها حكم الإعدام لاحقًا على أيدي الحلفاء كانوا يعملون بمختبر سري في أحد المعسكرات، إلا أن تجاربهم هذه اختفت كل نتائجها ويبدو أن الحلفاء لم يعلموا شيئا عنها وقتها ولهذا سمحوا لمينيغيل بالفرار، لكن ظل هناك أمر غامض فالروس يصرون على أن هتلر ما زال حيًا وأن من وجدوا جثته شخص آخر، وكان هذا دائمًا محور سؤال الضباط الروس أثناء التحقيقات.

هز محفوظ رأسه موافقًا وقال:

ـ لقد أخبرني بهذا بعض الزملاء الروس!

قال ديبوش وكأنه لم يسمع ما قاله محفوظ:

ـ المهم أن هذا السر كان فقط اليهود من يبحثون عنه ويبدو أنهم يظنون أنني أحمله باعتبار خدمتي مع مينيغيل، هم هدفهم أمر من اثنين؛ إما الوصول إلى هذا السر أو قتل كل

من يعرفه، ولأن المخابرات المصرية تحول دون وصولهم إلى كان يجب التخلص مني، وللعلم هذه ليست أولى محاولات الطرود المفخخة.

قال محفوظ متعجبًا:

ـ المخابرات المصرية؟!

هز ديبوش رأسه موافقًا وقال:

ـ وهل تظن أننا يمكننا العيش في سلام يا صديقي؟!

ـ ولكن هل أنت حقًّا لم تعرف هذا السر؟

ابتسم ديبوش وقال:

ـ لا، هي معلومة يتيمة التقطتها أذناي ذات يوم في أروقة النازية تتحدث عن أجارتا.

ـ وعند ذكر هذا الاسم جحظت عينا محفوظ بشدة بل إن مقلتاه قفزتا بكل عنف.

المعادي 1992

كاد القلق يعصف بعقل محفوظ الشيمي أستاذ الميثولوجي السابق ووالد مختار الشيمي وكيل النيابة، فمنذ الليلة الماضية ولم يغمض له جفن، فلم يكن يتخيل أبدًا أن تلك القصة القديمة التي سمعها من الطبيب الألماني الهارب آيزل الشهير بكال ديبوش والتي جعلت سنوات عمره تضيع في دراسة هذا الجزء من الميثولوحي الخاص بواحدة من أكثر أساطير العالم المعاصر غرابة وغموضًا، فوجد نفسه يغوص بين تلال الكتب والمراجع والدراسات بحثًا عن حقيقة الأمر، لكنه فشل فشلًا ذريعًا في الوصول إلى شيء رغم كل المعلومات التي انتقلت إليه عبر ضباط روس قد عاصروا سقوط برلين!

لكنه بعد كل هذه السنوات وبمصادفة مستحيلة الحصول يجد أنه يمسك بيديه الدليل الحي على وجود أجارتا.

كشف علمي خطير بالنسبة لأي شخص، لكن بالنسبة لشخص غاص إلى أذنيه في هذا الأمر يعلم جيدًا أن أبواب الجحيم قد تفتح فجأة على مصراعيها إذا ما حصل اليهود على هذه المعلومة، كما أن مشاعره الأبوية تنذره بخطر يحيط بابنه إذا ما اكتشف أحدهم أنه يملك تلك الخريطة!

لسبب منطقي كان يجب عليه أن يشرح لمختار مدى الخطورة التي قد تحيط به، فمجرد التحذيرات الجوفاء لم تكن لتثني مختار عن أي خطوة كان يمكن أن يقوم بها إذا ما استطاع حل هذه الألغاز المتعلقة بألبوم الصور وتلك الخريطة اليدوية، لهذا كان يجب عليه أن يشرح كل شيء لمختار وقد نجح في إقناعه بالتخلص من الخريطة وحرقها، لكن الأخير أصر أن يبقي على الألبوم بحجة أنه لا يمثل خطورة.

كل لحظة تمر كانت تزيد محفوظ توترا ويسرع قلبه في خفقانه بشدة، حتى قاطع صوت الباب هذه الأفكار الظلامية التي ضربت برأسه.

فتح محفوظ الباب ليجد أمامه رجلين ضخمين كان احدهما ربما في الخمسين من عمره إلا أنه يحتفظ بجسد معضل يدل على هيئة رياضية والأخر شاب اسود الشعر طويل القامة مفتول العضلات يشبه هؤلاء الحرس الشخصيين الذين ظهروا حول المشاهير هذه الأيام.

بادر الرجل الكبير محفوظ قائلًا:

ـ هل الأستاذ مختار موجود؟

ـ كلا إنه بالخارج، من السائل؟!

ابتسم الرجل وقال بلهجة مهذبة ذات لكنة غير عربية:

ـ أصدقاء مجرد أصدقاء.

نظر إليهما محفوظ نظرة متوجسة وقال:

ـ حسنًا هو ليس هنا.

كاد أن يغلق الباب إلى أن قدم الرجل كانت أسرع لتعيق الباب وهو يدفع بجسده داخلًا ويقول:

ـ إذن يمكننا أن نتحدث معك دكتور محفوظ.

ـ في هذه اللحظة قد تراجع محفوظ خطوتين إلى الخلف فسمح تراجعه للرجلين بالدخول وغلق الباب خلفهما

ـ من أنتما وماذا تريدان؟!

ابتسم الرجل المعضل ابتسامة بدت شريرة بعكس لهجته المهذبة السابقة وهو يقول:

ـ نريد تلك الأشياء التي حصل عليها مختار من غرفة الألماني.

ـ كانت مفاجأة بالنسبة لمحفوظ فرغم تأكده من الخاطر المحيطة بالأمر لكنه لم يتوقع التحرك بهذه السرعة!

تمالك محفوظ رباطة جأشه وحاول أن يبدو مندهشا وقال:

ـ لا أعلم عما تتحدث!

في هذه اللحظة شعر محفوظ بذراعه اليمنى وكأن عظامها تتهشم فلقد قفز الشاب ممسكا بزراعه ويدور به ويضغك بشدة.

تأوه محفوظ وقد احتقن وجهه من شدة الألم في حين أردف الرجل قائلًا:

- أظن أنك تعلم الآن؟

قال محفوظ بصوت متهدج يعنصره الألم:

- لا أدري عما تتحدث صدقني.

- لم يكمل محفوظ عبارته عندما هوت قبضة قوية تسحق فكه من الرجل الذي يمسك به.

قال الرجل الأكبر سنًا وهو يميل على محفوظ الذي سقط أرضًا وقد ضرب رأسه دوار عنيف:

- هل ما زلت لا تعلم؟!

هز محفوظ رأسه نافيا في إعياء ليشعر بأمعائه تكاد تقفز من حلقه على أثر ركلة من الرجل الذي يحدثه قبل أن ينحني الشاب ويجذب رأسه بعنف ويديرها بسرعة لتصدر عظام العنق قرقعة خافتة ويسقط محفوظ عند قدميهما جثة مهمدة.

لم تمض خمس دقائق حتى كان الرجلان يغادران وبصحبتهما الشيء الوحيد الذي عثرا عليه وهو ألبوم صور مجرد ألبوم للصور.

المعادي 2017

ارتشف مختار رشفة من قهوته وهو ينظر إلى معتز وفريد بشك واضح، فقال معتز كاسرًا حاجز الصمت:

ـ أعتقد أنك استقبلت رسالتي يا سيد مختار؟

هز مختار رأسه موافقًا وقال:

ـ لقد كانت رسالة ذكية فكن يظن أنك تكتب لي على الزجاج؟

ـ كان يجب أن أفعل ذلك فأنا أعلم أنك تملك الكثير من المعلومات ورغم تصنعك الجهل بها أمام سارة ولقد أسعدني تمسكك بسرك، لكن كان يجب أن أجلس معك بعيدًا عنها.

ـ وماذا تريد مني؟

تدخل فريد في هذه اللحظة قائلًا:

ـ سارة ليست بالشخص الموثوق فيه ونحن نعتقد أن للأمر أبعاد أمنية قد تضر بأمن البلاد.

نظر إليه مختار بشك وقال:

ـ وهل أنتما مهتمين حقًّا بامن البلاد أم هي لعبة جديدة؟

نأوله فريد بطاقة تعريفية مميزة جعلت مختار يشعر بالارتياح قليلًا وقال:

ـ إن كنتما مهتمين حقًّا فالأمر لا يمثل خطرا على أمن البلاد، بل خطرا على العالم كله ولقد دفع والدي ثمن الحفاظ على هذا الأمن حياته نفسها.

قال معتز باهتمام بالغ:

ـ أرجوك ما هو هذا السر الخطير الذي يجعل الأمور تصل إلى تلك الخطورة؟

تنهد مختار بعمق وقال:

ـ ما لم يعلمه هؤلاء القتلة إنني ووالدي لم نكن نعلم الكثير.

قال فريد بلهجته الأمنية:

ـ ربما يفيدنا القليل هذا!

قال مختار:

ـ كان يجب أن يظل الأمر طي الكتمان، ولكن بما أنهم ظهروا مرة أخرى فيجب أن يعرف أحدهم الحقيقة لعله يستطيع إيقافهم.

قال فريد وقد بدأ يشعر بالملل:

ـ سيد مختار إننا لا نملك الكثير من الوقت فخلفنا جهات تتحرك بسرعة وحرفية شديدة

قال مختار وهو يبتسم:

ـ ما ستسمعه يستحق بحق.

ـ كلنا آذان صاغية.

قالها معتز الذي بدا بحكم طبيعته البحثية شغوفًا بمعرفة الأمر على عكس فريد الذي جل همه الحصول على معلومة تفيد التحقيق في قضية كأي قضية أخرى.

عدل مختار من نظارته وقال:

ـ لقد حصلت عن طريق الصدفة في أحد القضايا على خريطة يدوية وألبوم صور شيء ما دفعني لمخالفة القانون والاحتفاظ بهما، ربما شاءت الأقدار أن أحملها لتصل إلى والدي رحمه الله الذي كانت هذه الأشياء مجرد فصل جديد في قصة قد بدات معه منذ زمن خلاصتها أن ما كان بين يدي مخطط نازي قديم أو بالتحديد نصف مخطط يتحدث عن شيء ما اسمه أجارتا.

قفز معتز من مكانه عند سماعه الاسم قائلًا بفزع:

ـ أجارتا؟!

هز مختار رأسه موافقًا وقال متعجبًا:

ـ هل سمعت عنها؟

ـ بالتأكيد فأنا أستاذ بالتاريخ المعاصر وباحث كذلك فيه؟

ابتسم مختار وقال بحسرة:

ـ وكذلك والدي كان متخصصا في الميثولوجيا المعاصرة وهذا ما جعله يفهم طبيعة ما بيدي وقتها ومعرفة مدى خطورته.

قال معتز:

ـ ولكن هذا مستحيل!

تدخل فريد في عصبية قائلًا:

ـ هل يمكن لأحدكم أن يشرح لي ما يدور هنا؟

تجاهله معتز بطريقة مهينة وقال:

ـ لقد قلت أن من هاجموا والدك قد استولوا على ألبوم الصور فقط إذن أين تلك الخريطة؟

مط مختار شفتيه قائلًا:

ـ لقد قمت ووالدي بحرقها فلقد كان يؤمن أنها لا يمكن أن تقع في يد أحد.

انكمش معتز داخل مقعده حسرة لسماع خبر فقد الخريطة في حين صرخ فريد بعصبية:

ـ يجب أن توضحا لي الأمر فأنا لا أفهم شيء؟

قال مختار:

ـ هناك شيء وحيد احتفظت به صورة لأربيرت هايم.

تركهما وغاب عدة دقائق قبل أن يقول فريد لمعتز:

ـ هل يمكنك التوضيح الأن؟

ـ حسنًا أنها قصة طويلة ساوضحها لك كاملة ولكن لننتظر لاحقا.

حاول فريد كبت غضبه مع دخول مختار وفي يدخ صورة ضوئية في حجم كف اليد ناولها لمعتز الذي نظر فيها وقال لمختار:

ـ ولماذا احتفظت بهذه الصورة تحديدًا؟!

كان معتز يناولها لفريد الذي التقط الصورة من يد معتز يتفحصها جيدًا، في حين قال مختار:

ـ لأنها تحتوي صورة الرجل الذي أثار كل هذا الغموض من حولنا كما أنها تشير إلى واحدة من خمس نقاط كانت بالخريطة.

ـ هناك شيء بالصورة؟

قالها فريد متعجبًا فنظرا إليه متسائلين إلا أنه دس الصورة في جيبه وهو يقول لمختار:

ـ هل لديك شيء آخر؟!

هز مختار رأسه نفيا وقال:

ـ كلا هذا كل شيء على ما أعتقد...

جذب فريد يد معتز ونهض بعجالة قائلًا:

ـ سننصرف الآن؟

نظر إليه معتز قائلًا:

ـ إلى أين؟

ـ ستفهم كل شيء في وقته هيًّا.

نيويورك مركز "سيمون فيزينتال" - 2017

أشعل الرجل سيجاره الكوبي ذي الرائحة النفاذة وتابع حلقات الدخان في نشوة عارمة، وديفيد ويزمان ذو الأربعين ربيعًا يتابعه متعجبًا من هدوء أعصابه المبالغ فيه!

ديفيد سمع كثيرًا عن ثقة مارك أنطوني بنفسه، وهدوئه المفرط حتى في أحلك الظروف فربما عمله السابق بـ cia كانت قد أكسبته حالة خاصة جدًا، ظل محتفظًا بها حتى بعد تقاعده ورئاسته لأكبر مركز حقوقي وأغناها على الإطلاق!

إلا أن تعجب ديفيد الأكبر كان ما يعرفه عن طبيعة الموضوع الذي يناقشانه وخطورته، فكلاهما يعلم ما قد تؤول إليه الأمور إذا ما سبقهم أحد إلى هذه المعلومات الخطيرة التي يسعون خلفها!

ـ ما قولك يا سيد مارك فيما أخبرتك به؟

قالها ديفيد محاولًا كسر حاجز الصمت الذي فرضه الرجل السمين ذو الستون عامًا بحاجبيه الكثيفين وشاربه المنمق وعيناه الشبيهتين بعيني ذئب عجوز.

فجأة اعتدل مارك أنطوني في جلسته ورمق ديفيد بنظرة صارمة وقال:

ـ مشكلتكم أنكم تتسرعون في خطواتكم، ثم تبحثون عمن يخرجكم من المأزق.

قال ديفيد متعجبًا:

ـ وما التسرع في هذا؟! فتاتك هي من استعانت بذلك المصري ويبدو أنه من ذلك النوع المريض بالوطنية!

نهض مارك من خلف مكتبه فبدا أضخم كثيرًا من كونه جالسا ببذته السوداء الباهظة ودار حول مكتبه وربض على كتف ديفيد قائلًا:

ـ هذه الفتاة أثق في ذكائها وإخلاصها، كما أنها حفيدة كاستنر الذي أعطى هذا السر للألمان سابقًا وقد استطعت إقناعها أن الأمر شخصي بالنسبة لها قبل أن يكون مهمة قومية لليهود، ولكنكم دون أي مشورة ظهرتم بالصورة فجأة فألتقطتكم أجهزتهم الأمنية مما أثار الشكوك حولها وجعل ذلك الأستاذ المصري يعمل مع أجهزة بلاده!

نظر إليه ديفيد في دهشة قائلًا:

ـ إذن أنتم كنتم على علم بكل شيء؟!

ضحك مارك فاهتز جسده بشدة وهو يقول:

ـ هل تعتقد أن وجودي في هذا المكتب مصادفة؟!

ثم غمز بعينه مردفا:

ـ نحن والموساد والـ cia وحتى المخابرات الروسية والبريطانية شركاء في هذا ياصديقي وإختياري لهذا المنصب لم يكن اعتباطًا فعملنا المخابراتي في خدمة الهدف الأعظم يلزم أن يجلس على هذا المقعد شخص مثلي.

كان ديفيد يشعر بالغثيان مع هذه الطريقة المتغطرسة التي يتحدث بها مارك انطوني، وفي نفسه كان يلعن تلك الساعة التي كلفه رؤوساءه بالموساد أن ينسق العمل مع رجل بكل هذا الغرور والغطرسة.

جلس مارك في المقعد المقابل لديفيد وهو يقول:

ـ اختيار سارة كاستنر كان له معايير وفقًا لخطتنا وهي الدخول كصحفية فسجلها نظيف كما أن صديقها المصري سيكون مفيد جدًا لكن رصد رجالكم جعل الشك يحوم حول جميع الأجانب ومنهم سارة! ما لا تعلموه أن سارة وصديقها تحت المراقبة اللصيقة منذ اللحظة الأولى وذلك الضابط المصري الذي يتعاون من معتز أيضًا معروف بالنسبة لنا!

قال ديفيد متسائلًا:

ـ ولكن وجوده قلب كل الموازين راسًا على عقب!

هز مارك رأسه موافقًا وقال:

ـ لكنه مجرد شخص بمفرده وكنا سنستفيد به دعه يبحث ونحن خلفه.

هز ديفيد رأسه بعدم فهم وقال:

ـ ماذا تعني؟!

ضحك مارك قبل أن يميل بجسده إلى الأمام ويقول ساخرًا:

ـ لماذا تصرون دائمًا أنكم جهاز المخابرات الأفضل؟!

تراجع ديفيد وشد من قامته وهو جالس قائلًا:

ـ لأننا الأفضل بالفعل!

ـ لو كنتم الأفضل لاستطعتم معرفة طبيعة أرض المعركة، أن المصريين لن يجازفوا بتصعيد عمل مخابراتي ضد صحفية أمريكية، خاصة وانهم حتمًا يعلمون أن الأمر لا يعنيهم مباشرة، فسيكون كل هدفهم الوصول إلى معلومة تضاف إلى رصيدهم المعلوماتي لهذا كلفوا هذا الضابط منفردا، بهدف الوصول قبل سارة، وبما أنني أعلم ذلك فقد كلفت بعض العناصر بمراقبة معتز والضابط حتى يصلا إلى ما نريد.

ـ وماذا عن سارة؟!

أشعل مارك سيجاره مرة أخرى ونفث دخانه بكثافة وقال:

ـ سارة مهمتها انتهت وأنت تعلم أن كل من على دراية بالأمر يجب أن يختفي تمامًا.

رفع ديفيد حاجبيه قائلًا:

ـ ماذا تعني؟!

ضحك مارك حتى ظهرت أسنانه الصفراء وقال:

ـ إن كانت لم تفيدنا وهي حية ستفيدنا أكثر وهي ميتة وهذا دور رجالك هناك.

ـ لا أفهم هدفك بالضبط؟!

ـ سأشرح لك كل شيء.

وبدأ مارك في شرح قصته الشيطانية على مسامع رجل الموساد الذي جحظت عيناه عن آخرهما وهو يرى أمامه صورة بشرية من الشيطان ذاته.

القاهرة - 2017

وسط زحام القاهرة علقت سيارة معتز وإلى جواره جلس فريد الذي شرد منذ خروجهما من شقة مختار، فنظر إليه معتز متسائلًا:

ـ هل يمكنني أن أعلم لماذا أصريت أن نغادر بسرعة فجأة، وماذا يمكننا أن نجد في مصر القديمة؟!

نظر إليه فريد بلامحه الجامدة وقال:

ـ إن أكثر ما أبغضه العمل مع المدنيين، وذلك لكثرة الأسئلة!

رفع معتز حاجبيه متعجبًا وقال:

ـ ولماذا إذن لم ترفض؟!

تنهد فريد بعمق وقال:

ـ لا يمكنني عصيان أمر القيادة...

ـ إذن عليك إشراكي فيما تنتوي فعله.

تنهد فريد مرة أخرى وقال:

ـ حسنًا سأخبرك، ولكن لتشرح لي أولًا م ادار في الحديث مع مختار وما هي أجارتا؟!

كانت حركة السير قد بدات في الانسياب فبدأت السيارة في الحركة التدريجية وما أن استقرت في بحر الطريق حتى قال معتز:

ـ هل تؤمن إننا الكائنات الوحيدة العاقلة في الكون؟

نظر إليه فريد متعجبًا وقال:

ـ ربما وربما لا فما يهمني في ذلك؟!

ـ إذن أنت لا تمانع وجودها؟

ـ لا أؤكده ولا أنفيه، ولكن استبعد كثيرًا فكرة الكائنات الفضائية، كما أنني لا احبذ فكرة وجود الجن.

ابتسم معتز وقال:

ـ بل لن نبتعد إلى حد الفضاء هذه المرة، ولن ندخل في جدال حول الكائنات الطيفية مثل الجن والأشباح، أن ما أتحدث عنه أقرب بكثير.

نظر إليه معتز متعجبًا وقال:

ـ لا أفهم علاقة كل هذا بما دار مع مختار؟!

ابتسم معتز وقال:

ـ إن كان ما تحدث عنه والده وصديقه الألماني صحيح فهذا يعني أننا نبحث عن بوابات أجارتا الأسطورية.

ـ يا أخي أنت تزيد الأمور غموضًا.

ضحك معتز وقال:

ـ صدقني ما يتحدثون عنه في حكم المستحيل نظريًا ولهذا دعنا منه الآن واخبرني ماذا سنفعل في مصر القديمة؟!

تراجع فريد في مقعده وقال:

ـ إنه أمل قد عثرت عليه في الصورة وأتمنى ألا يسبقنا أحد إليه.

نظر إليه معتز متعجبًا وقال:

ـ وما هذا الأمل؟!

ضحك فريد وربما هي المرة الأولى التي يراه فيها معتز يضحك، وقال:

ـ ستفهم كل شيء في وقته.

خيم الصمت على السيارة لدقائق قبل أن يقطعها صوت هاتف فريد النقال الذي ما أن رأى اسم المتصل حتى أنتفض في مكانه وهو يستمع لمحدثه دون أي تعليق قبل أن ينهي المحادثة وينظر إلى معتز بوجه محتقن ويقول:

ـ انطلق بنا إلى طريق الواحات فورًا.

تعجب معتز من ذلك التغيير المفاجئ وقال:

ـ لماذا؟! ماذا حدث؟!

ـ لقد قتلوا سارة كاستنر.

صعق معتز من الجملة الأخيرة حتى كاد أن يقفز بسيارته فوق الرصيف الذي يفصل اتجاهي السير.

فأحكم قبضته على المقود وهو يحاول استعادة تركيزه ونظر إلى معتز في ذهول قائلًا:

- من هم؟!

مط فريد شفتيه قائلًا:

- لا أدري تحديدًا، ولكننا سنفهم كل شيء عما قريب.

ساد صمت مطبق على السيارة طوال الطريق وكلاهما تدور في رأسه عشرات الأسئلة التي تبحث عن أجوبة دون جدوى.

المعادي - 2017

ارتشف مختار رشفة من قدح القهوة المركزة وهو يجلس خلف مكتبه باسترخاء وهو يقلب في صفحات مفكرة صغيرة قديمة، قد مر على احتفاظه بها سنوات طوال!

نفس المفكرة التي التقطها من غرفة أربيرت هايم الشهير بالخواجة طارق منذ خمسة وعشرون عامًا!

في البداية لم تكن تعني المفكرة له أي شيء، لكن بعد حديثه مع والده تغيرت نظته لكل شيء يخص ذلك الرجل... لم يعلم أي كان باحتفاظه بهذه المفكرة حتى والده ولقد أخفاها جيدًا حتى أن والده قتل ولازالت المفكرة في حوذته فلقد كانت لا تفارق جيبه أبدًا لهذا لم يجدها القتلة واكتفوا بألبوم للصور!

كانت المفكرة ليست ذات قيمة خاصة وأن ما بها مدون باللغة الألمانية التي لا يمكنه فهمها ولكن بعد تصاعد الأحداث وما آلت

إليه الأمور كان يجب عليه فهم ما تحتويه، فلجأ إلى مترجم خاص كانت السلطاتةالقضائية تستعين به، وأقنعه أن الأمر يخص إحدى القضايا المسيسة ولهذا كان يجب أن يظل الأمر شخصيًا.

وبناء على طلب مختار دونت الترجمة على صفحات نفس المفكرة.

ولساعات طويلة كان مختار يطالع ما فيها في ضوء ما رواه والده، ولكن مع مرور الزمن قد تناسى وجودها حتى عادت أسطورة أربيرت هايم للطفو مرة أخرى.

تمتم مختار قائلًا:

ـ لأول مرة أكره دراستي للقانون، فلو كنت درست علمًا آخر لربما ساعدني أكثر الأن!

ارتشف رشقة أخرى من قهوته وهو يقرأ ويقرأ، لقد كان والده محقا فالرجل كان يبحث عنها، بل لقد توصل فعلًا إلى بوابة يمكنه العبور من خلالها، وقد كان يستعد للعبور آملًا في الحصول على الشفاء هناك.

لكن سرطان القولون كان أقوى ففتك به تاركًا حلمه خلفه ليصنع لغزًا.

مختار يسير على نصح والده بالاحتفاظ بالسر فما استطاع حل طلاسمه من تلك المفكرة يؤكد أنه أمام أمر جد خطير، لهذا كتم السر بداخله حتى على معتز وفريد.

أغلق مختار المفكرة ووضعها أمامه وهو يرشف آخر رشفة من قدح قهوته ليسترخي للحظات في مقعده ملقيًا برأسه إلى الخلف ويغمض عينيه للحظات قبل أن يتنهد بعمق ويعود ليتناول شيء صغير من على سطح مكتبه، لقد كان عبارة عن قداحة، أشعلها وهو يرفع المفكرة ويقربها من الشعلة ويتمتم قائلًا:

ـ اعذرني سيد أربيرت لكن سرك يجب أن يدفن معك الأن.

كانت المفكرة قد التقطت النيران فتشتعل بسرعة فيضعها مختار في منفضة السجائر وهو يتابع ألسنة اللهب المشتعلة ويزفر بارتياح وهو يرى تلك النيران تخفت تدريجيًا معلنة آخر اختفاء السر إلى الأبد!

أو كما يعتقد هو.

سمع جرس الباب يدق في إلحاح، فنظر نظرة أخيرة كأنه يتأكد من تلاشي أي أثر لما دون بالمفكرة قبل أن يسير متثاقلا ليفتح الباب.

كان أمامه مباشرة رجلين ضخمي الجثة ملامحهما أجنبية...

كاد أن يسألهما لكن قبضة أحدهما كانت أسرع لتلقي بمختار لمترين أو أكثر إلى الداخل فدفع الرجل الآخر باب الشقة ليغلقه.

مسح مختار خيط الدم الذي يسيل على جانبي فكه ونظر إليهما لتجحظ عيناه عن آخرهما وهو يرى فوهة مسدس ذات كاتم صوت مصوب تمامًا إلى قلبه مباشرة وإبهام الرجل تعتصر الزناد، حاملة كلمة النهاية للأبد.

طريق الواحات 2017

منطقة صحراوية نائية، عدد من رجال الشرطة يحيطون بشيء ما مغطى بغطاء جلدي سميك.

اقترب فريد من الضابط المسؤول بثقة سابقا لمعتز بعدة خطوات فأصر فريد بعدة كلمات سريعة جعلت الضابط يشد من قامته ويفسح الطريق لفريد ومعتز الذي لحق به.

جلس فريد القرفصاء وهو يكشف وجه سارة فاشاح معتز بوجهه الممتعق من هول المنظر.

أعاد فريد الغطاء إلى موضعه ونهض متجهًا مرة أخرى إلى الضابط متسائلًا:

ـ ماذا حدث تحديدًا؟

مط الضابط شفتيه وقال:

ـ بلاغ من أحد البدو عن وجود سيدة تلفظ أنفاسها الأخيرة وعندما وصلنا كانت قد فارقت الحياة.

ـ وما الأثار الأولية للحادث؟

ـ كدمات متفرقة مما يعني أنها تعرضت لاعتداء بدني ربما هو ما أدى إلى الوفاة لكن سننتظر تقرير الطب الشرعي بكل الأحوال.

هز فريد رأسه ممتنا لتعاون الضابط قبل أن يقول:

ـ هل يمكنني التحدث مع صاحب البلاغ؟!

أشار الضابط إلى رجل محلي يرادي جلباب وعليه جاكت لبزة رمادي اللون ويضع على رأسه غطرة بلا عقال قد طواها أعلى رأسه، اقترب الرجل من فريد والضابط فقال الأول:

ـ هل رأيت شيئًا مما حدث؟

هز الرجل رأسه نفيًا وقال:

ـ لقد عثرت عليها أثناء مروري بالأغنام وكانت في حالة يرثى لها.

ـ هل قالت شيء؟

ابتسم الرجل بسذاجة وقال:

ـ إنها اخذت ترطن بكلمات لم افهمها فيبدو أنها أجنبية.

قال فريد ملحًا:

ـ ألا يمكنك تذكر أي كلمة قالتها؟!

فكر الرجل قليلًا قبل أن يقول:

ـ لقد قالت الكثير من الكلمات لكنها أخذت تردد كلمة لم أتبينها جيدًا لكنها كانت جارتا نجارتا.

ـ أجارتا؟!

قالها معتز الذي كان قد اقترب منهم، فصرخ الرجل قائلًا:

ـ نعم، هي الكلمة!

تبادل معتز وفريد النظرات في حين قال الضابط متسائلًا:

ـ وماذا تعني تلك الكلمة بأي حال؟!

ابتسم فريد وقال:

ـ شكرًا لمساعدتك أيها الضابط سأذكر تعاونك معنا في تقريري.

نظر إليه الضابط ذاهلا، في حين جذب فريد معتز من ساعده إيذانا بالمغادرة.

جلس فريد خلف المقود هذه المرة فمعتز كان في حالة لا تسمح له بالقيادة، وما أن انتظمت السيارة في الطريق حتى التفت فريد قائلًا:

ـ أظن أن الآوان قد حان لتخبرني بما لديك فيبدو أن أحدهم بدأ في التحرك مبكرًا.

هز معتز رأسه موافقًا وهو يزفر بشدة كأنه يخرج بركانا من جوفه وقال:

- ما لدي لا يتخطى كونه أسطورة أو حكاية لا أصل علمي لها، بالنسبة للكتب ولكن لم يمنع هذا الكثيرين من الإعتناق بالأمر وبشدة أيضًا.
- ما يحيكه أنصار نظريات المؤامرة وتثبته الأحداث يومًا بعد يوم أن هناك توجه معين لإعداد العالم لحدث جلل، والأمر ليس جديدًا إطلاقًا بل من مئات السنين أو ربما أكثر.

رفع فريد حاجبيه بدهشة وقال:

- وما علاقة هذا بقضيتنا؟!

ابتسم معتز وقال:

- أنا أعلم أن الأمر معقد وسأحاول تيسيره عليك بقدر المستطاع، بدراسة متعمقة للتاريخ وخاصة الجوانب المظلمة فيه أو التي يحاولون التعتيم عليها ستتجلى حقائق كانت بالنسبة لما نشأنا عليه في حكم المستحيل؛ فمثلا هل يمكنك تخيل أن من مول الألمان في الحرب العالمية الأولى وزودهم بالنفقات المستخدمة في التسليح هم أنفسهم من دعم وغطى تكاليف الحلفاء في حربهم ضد ألمانيا! هل هي مصادفة أن كل دعاة الشيوعية من اليهود أو تربطهم علاقة وطيدة باليهود في نفس الوقت الذي يعد فيه اليهود أكبر الرأسماليين؟!

- صدقني كل هذا لا يهمني في شيء كل ما أريد الوصول إليه محور قصتنا.

قالها فريد بعصبية واضحة فانفجر معتز ضاحكًا وقال:

- أعتقد أن التحليل وتتبع الخيوط من صميم عملكم؟
- بلى!
- إذن نحن على الطريق الصحيح.

زفر فريد بعصبية وهو يضغط مقود السيارة بغيظ ضاغطًا على نواجزه وقال:

- حسنًا هات ما عندك!
- كل هذه الأحداث والمعطيات تؤكد وجود مخطط بعينه وقد استطاع البعض كشف حقيقته إلا أنهم أسكتوا إلى الأبد أو أرغموا على السكوت خوفًا مما قد يحدث، وبين غمرة الخطر والغموض كانت النظرية الدينية الأشهر على الإطلاق وهي المايتريا أو المنتظر أو المسيح أو المهدي أو الأفيرال، ودعني أحدثك عن الأخيرة تلك فهتلر كان ضمن جماعة شيطانية كما وصفها المؤرخون كانت بدورها تؤمن بشخص قادم لحكم العالم أطلقوا عليه اسم الأفيرال، ظنوا في بادئ الأمر أن هتلر نفسه هو الأفيرال لكنه سرعان ما اكتشفوا أنه جندي من جنوده ينفذ خطته للسيطرة على العالم وهذا يتضح في نتائج حربه التي صعدت بأمريكا كقوى عظمى يحسب حسابها خاصة إذا علمنا أن

الممولين قد اختاروها كمركز للقيادة والسيطرة، وكذلك الحكومة الشيوعية تصعد بسرعة لتشكل قطب آخر من قطبي القوى، وللوصول إلى الهدف الأسمى وخروج ملك الأرض يجب أن يكون لليهود أرض والتي أخذوا بها وعد بلفور أثناء الحرب الأولى لتعلن دولتهم بعد الحرب الثانية التي ساعدت بدورها على تهجير اليهود إلى فلسطين أو ما يسمونه أرض الميعاد وهي شرط رئيسي لظهور المخلص.

صمت معتز للحظة ليلتقط أنفاسه قبل أن يسترد قائلًا:

- بقي السؤال المهم أين هو هذا الملك المزعوم؟! وهذه النقطة تحديدًا أثير حولها الجدل لكن أغلب ما جاء فيها أنه موجود بالفعل ويدير المعركة من مخبئه.

قال فريد متعجبًا:

- وأين مخبأه هذا؟
- أجارتا.

جحظت عينا فريد بقوة وقال:

- أجارتا!

هز معتز رأسه قائلًا:

- في الحقيقة أن اسم أجارتا لا يعلم حقيقته إلا أنه ظهر إلى العلن ضمن بعض الإشارات التي تضمنها كتاب ألكسندر سانت ايف اللاهوتي الفرنسي، والذي أسماه أجارتا!
- وعم يتحدث هذا الكتاب تحديدًا؟!

مط معتز شفتيه وقال:

- صدر هذا الكتاب في القرن ال ١٩ لكنه حقيقة لم ير النور لأن السلطات الفرنسية جمعت كل نسخه وأحرقتها ولا يفهم حتى هذه اللحظة سبب هذا الفعل من قبل السلطات الفرنسية، إلا أن هناك حديث أن نسخة واحدة من هذا الكتاب قد نجت من المحرقة ومن ثم اختفت تمامًا.

قال فريد متعجبًا:

- إذن لم يعرف أحد عما يدور الكتاب وبالتالي أليس من العجيب أن يستغل اسمه بهذا الشكل!

ضحك معتز وقال وهو يغمز بعينه:

- يبدو أن الضابط الأمني قد بدأ يفكر بطريقة بحثية!

عقد فريد حاجبيه غضبًا بطريقة أثارت الضحك لدى معتز الذي قال:

- السبب بين ربط هذا الكتاب وما يحدث أن الجميع يتحدث عن شيء واحد فكما روي أن الكتاب كان يتحدث عن مدينة عظيمة متقدمة لن يصل إليها البشر إلا إذا عادوا إلى تعاليم موسى وقد أسماها أجارتا.

تفكر فريد للحظات وقال:

- هل تعني أننا الآن أمام لغز البحث عن مدينة مفقودة؟!

هز معتز رأسه نافيًا وقال:

ـ ليس بالضبط يا صديقي، فهي ليست مفقودة تمامًا، بل لقد زارها البعض بالفعل.

ـ أين هي إذن؟!

تنهد معتز وهو يتابع الطريق وكأنه ينظر إلى داخل أعماق نفسه وقال:

ـ سأخبرك يا صديقي بكل شيء.

وكان ما يرويه عجيبًا بحق.

1945 - مكان مجهول بالقطب الجنوبي

ما أن توقفت الغواصة الألمانية لتطفو على سطح منطقة تم اختيارها بعناية بعيدًا عن السطح المتجمد، حتى لاحظ قبطان الغواصة تحرك بعض الأجسام البيضاء لتقترب من الغواصة مشيرين للربان بفتح قمرة الغواصة.

تحرك الأفراد داخل الغواصة ليحملوا صندقين ضخمين من الخشب قد تلقوا تعليمات بضرورة الحرص أثناء حملهما.

تناول الرجال ذوو السترات البيضاء الذين كانوا قد اقتربوا من الغواصة حتى ظهر الأفراد يحملون الصندوقين فأشار أحد الرجال بالسترات البيض ليتحرك جماعة منهم لتناول الصندوقين بهدوء وحذر شديدين.

هنا ظهر الربان على سطح الغواصة فأشار له قائد المجموعة البيضاء بإشارة غامضة.

فوجئ الأفراد بسيل من الرصاص ضاع صداه وسط الفراغ المحيط لتسقط بضع جثث.

نظر الربان وضابطيه إلى مشهد جثث الأفراد وقد شعر بمرارة في حلقه والأدخنة تتصاعد من فوهات بنادق الرجال ذي السترات البيضاء.

وما هي سوى دقائق حتى كان فريق السترات وبصحبتهم الربان والضابطين المساعدين يسيرون عبر ممرات ثلجية وعرة غير محددة الملامح فكل ما حولهم أبيض بلون الثلج...

لمدة ١٥ دقيقة كاملة عبر الممرات الثلجية والتلال سار الركب الصغير حتى توقف قائد المجموعة ناظرا إلى ربان الغواصة وقال:

ـ أنت تعلم أنه لا يرحب هنا بالجميع لكن أنت وطاقمك مرحب بكم خاصة مع هذه الثقة التي أوليتم بها لنقل هذين الطردين.

ـ وأشار إلى الصندوقين اللذين وضعا على عربتين ذي زلاجات جذبها بعض الرجال بحرص...

كان الحشد يقف مباشرة أمام جدار جليدي عملاق يشكل جانبي ممر ضيق لا يتخطى الثلاثة أمتار عرضًا يقع أسفل تلين مرتفعين بشدة، وعند نقطة معينة في الجدار خلع القائد قفازه الأيمن وضغط على الجدار بكفه الأيمن ليتجرك الجدار بطريقة عجيبة جعلت رجال الغواصة يتقهقرون في فزع، فرغم أنها ليست رحلتهم الأولى إلى القطب الجنوبي بل لقد تكررت الرحلات منذ ثلاث

سنوات كاملة، إلا أنهم لم يغادروا يومًا رصيف الميناء البدائي الذي اختاروه كمرسى للغواصات التي نقلت مئات البشر والمعدات على مر السنوات السابقة!

ظهر ممر طويل مرصوف يتجه بمنحدر شديد إلى أسف قد كان في انتظارهم عدة عربات صغيرة أشار إليها القائد إيذانا بالركوب لتنطلق بسرعة عبر الممر المنحدر المظلم فور غلق الباب السري في جدار الجبل.

سارت العربات لمسافة قاربت عدة أميال هابطة لأسفل عبر منحدر مرصوف نحت بدقة.

توقفت العربات فجأة عند بهو عملاق ربما تقاس مساحته بمئات الأمتار مزدحم بالآلاف من البشر يسعون في حركة دؤوب لا تتزقف نساء شقراوات جميلات جعلت عيني الربان وضابطيه تجحظ بشدة وكذلك الرجال.

أشار قائد المجموعة إلى مصعد زجاجي يشبه كشك صغير فاتجه عدد من رجاله يحملون الصندوقين إلى المصعد قبل أن يهبط بسرعة مختفيًا عن الأنظار، فتوجه القائد إلى ربان السفينة قائلًا:

ـ هذا ما كنا نعمل عليه منذ سنوات!

فغر الربان فاهه فالمكان كان أكثر من أسطوري فصرخ أحد الضباط شاهقا:

ـ يا إلهي إنها شانغريلا على الأرض!

قال الضابط الآخر ودهشته لا تقل عن زميله:

ـ إن هذا ما تحدث عنه الأميرال كارل دونيتس ادميرال لقوات البحرية الألمانية!

هز قائد مجموعة السترات البيضاء رأسه موافقًا وعلى شفتيه ابتسامة زهو وهو يقول:

ـ يجب أن تفخروا أنكم ضمن السرب o ٥٣٠ التي ساهمت غواصاتها في هذا العمل العظيم.

ثم صمت الرجل لوهلة قبل أن يستدرك قائلًا:

ـ ليس هذا الصرح هو أول المطاف ولكن هناك الكثير لتعرفوه لاحقًا وأعدكم أنها ستكون مفاجأة لن تخطر لكم على بال مطلقًا.

المعادي- 2017

كان الوضع متأزمًا بالنسبة لمختار فوهتين موجهتان إلى قلبه لا تحتاجان سوى ضغطة واحدة وتنتهي حياته مباشرة.

ـ ماذا تريدان؟!

قالها مختار بصوت متهدج وهو ينظر إلى الرجلين مفتولي العضلات، في حين اقترب أحدهما منه وقال بلغة عربية ذات لكنة شامية يشوبها بعض الاعوجاج:

ـ أنت تعرف ما نريد فإما أن تخبرنا بما لديك أو تموت بسرك!

كان مختار يعرف جيدًا ماذا يريدان وكذلك يعرف أنهما لن يتوانيا عن قتله، وها هي المرة الأولى التي يختبر فيها مقدرته على حفظ السر، لكنه الموت المحدق في تلك الفوهة!

تلعثم مختار وهو يحاول كسب مزيدًا من الوقت قائلًا:

ـ لا أفهم عما تتحدثان؟!

تحرك إبهام أحدهما على زناد مسدسه، إلا أن زميله المتحدث بالعربية هوى بكعب مسدسه على فك مختار ليشعر برأسه تصطدم بالأرض وهو يصارع ألا يفقد الوعي مع هذا الدوار الذي ضرب بعقله.

ـ مستر مختار من الجائز أنك لم تتأثر بحياة والدك منذ سنوات لكنك حتمًا ستهتم لحياتك أنت، أما ما تخفيه سنعرفه حتى لو أضطررنا لتفريغ محتويات جمجمتك نفسها.

كان مختار يشعر بفوهة المسدس الباردة تدغدغ صدغه بعنف، الموقف بلا امل وبحر حيرته بلا قاع فهو لا يدري ما قد يصل إليه الأمر أن بلغ السر لرؤساء هذين الوغدين!، كما أنه يعلم أن إصراره على الكتمان قد يكون سببا في موته الأن... كل شيء محير فما يعرفه ليس بالكثير لكن مع وجود إمكانيات مثل ما يمتلكها الباحثون خلف السر قد يشكل خطرا على العالم كله!

ـ حسنًا سأخبركما.

ابتسم الرجل في ظفر وهو ينظر إلى زميله، ومختار يحاول استعادة توازنه أثناء نهوضه وما أن أنتصبت قامته حتى ضم قبضته ليطيح بفك الرجل القريب إليه، وبحركة صعبة جذب حلته ليلقي به على صديقه رغم وزنه وجسده المتكتل بالعضلات، فتنطلق الرصاصة من مسدس الرجل الثاني فتصيب زميله ليسقط من فوره جثة مهمدة.

جحظت عينا الرجل وهو يرى زميله مدرجا بدمائه.

أما مختار فقد قفز في اتجاه الباب محاولًا الفرار لكن الرجل كان أسرع فأطلق النار ليشعر مختار بسهمٍ ناري يخترق ذراعه لكنه تمالك نفسه وأدار رتاج الباب لينطلق نازلًا السلم بسرعة.

أطلق الرجل رصاصتين لكنهما ارتدا في جدران العقار.

كاد الرجل أن يلحق به لولا سماع صرخاتٍ امرأة كانت تصعد على السلم فاصطدم بها مختار وهو يهرع ممسكًا جرحه بكفه.

رغم ألم مختار، إلا أنه لم يكن يصدق أنه استطاع الفرار من الموت المحدق.

أشار مختار لسيارة أجرى ليقفز داخلها بسرعة، وخلفه مباشرة قفز الرجل في سيارة سوداء زجاجها داكن لتنطلق بسرعة البرق خلف التاكسي.

نظر مختار خلفه ليلمح السيارة السوداء تقترب فصرخ في السائق فزعًا:

ـ أسرع... أسرع.

وكأن صرخته كانت كفيلة ليعتصر السائق دواسة الوقود فتصدر عجلاته صوت صرير قوي وهو ينظر إلى مختار القابع في المقعد الخلفي عبر مرآته قائلًا:

ـ هل تريد أن نذهب إلى مستشفى؟!

لم يكمل جملته عندما اخترقت رصاصة صامتة الزجاجين الخلفي والأمامي مارة مباشرة بجوار أذن مختار.

شعر السائق بالهلع وهو يطلق بعض السباب العصبي لكن الرصاصة أنبأته أنه قد تورط الآن ولا يمكنه التوقف ليلقي بمختار خارج سيارته!

بصوت متهدج قال مختار:

ـ سأدلك على الطريق الآن اتبع إرشاداتي.

ـ أنهى جملته وهو ينظر خلفه ليطمئن أن السيارة السوداء قد علقت في زحام خلفه مناورة التاكسي المثيرة مخلفة سبابات السائقين.

فابتسم السائق الذي راى المشهد عبر مرآته وقال:

ـ إنهم لا يعرفون مع من يتعاملون.

نظر السائق عبر المرآة الأمامية ليلحظ ذلك الشحوب الشديد على وجه مختار والذي أخذ جرحه ينزف بشدة فكان الإعياء جليًا على وجهه الذي خطت بدايات الشيب عليه خطوطها بلا هوادة، فقال برأفة:

ـ يا سيدي أنك تحتاج إلى طبيب حتمًا فانت تنزف بشظة!

قال مختار بإعياء:

ـ صدقني لا وقت فقط انطلق إلى حيث أرشدك بأقصى سرعة.

ـ حسنًا إلى أين؟

وكان المكان مفاجأة حقيقية للسائق جعلت عينيه تقفزان من محجريهما.

مبنى مركز سيمون فيزنتال

2017

عقد مارك انطوني ذراعيه خلف ظهره وهو يدور حول ديفيد الجالس أمامه، بعصبية شديدة، لدقيقة كاملة قبل أن يعود ليجلس خلف مكتبه، ويشعل سيجاره الكوبي ويستنشق كمية كبيرة من دخانه جعلته يسعل بشدة قبل أن يقول بصوت مبحوح من أثر السعال:

ـ أنت تخبرني الآن أنكم قد عرضتم كل المهمة للخطر!

قال ديفيد بخجل:

ـ ليس تمامًا ف.

قاطعه مارك قائلًا بعصبية:

ـ فماذا هه! تريد إقناعي أن رجل عجوز يهزم رجلين مدربين ويستطيع الفرار مخلفًا جثة أحد العملاء خلفه ليكشف لكل أجهزة العالم مخططاتنا!

شعر ديفيد بالحنق من هذه الطريقة التي يتحدث بها مارك، لكن الأوامر كانت صريحة بالتعاون مع المركز فكما أخبره قادته أن دور المركز في هذه المهمة مهم جدًا.

سيد مارك برغم ثقة رؤسائي في مركزكم، لكنني ما زلت لا أفهم سر تلك الطريقة المتعالية التي تعتري نبرتك، فكما أظن أن مركبنا واحد!

ضحك مارك ساخرًا وقال:

- في الوقت الذي شغل قادتك بالحروب مع العرب كان هذا المركز وقبله بسنوات السيد سيمون فيزنتال نطارد النازيون مصورين للعالم أن اليهود قد تعرضوا للإبادة على أيدي النازيين.

تعجب ديفيد وقال بدهشة:

- مصورين؟! اليست هي الحقيقة؟!

انفجر مارك ضاحكًا وقال:

- كم عدد اليهود الآن بعد مرور أكثر من سبعين سنة، حتى يكون في ألمانيا وحدها عدة ملايين لحرقهم في غرف الغاز! ببساطة لقد كان لابد من هدف معلن لمطاردة النازيين للوصول إلى السر فمنذ آبائنا الأوائل في القرن السابع عشر ونحن نسعى لهدف واحد وهو إعداد العالم لملكنا المنتظر، وقد قابلنا بقوة وقسوة كل من حاول كشف مخططنا بعد تسريب محضر الاجتماع الأخطر في تاريخ

الصهيونية فقمنا بحرق المطابع ودور النشر التي طبعته أو حاولت توزيعه مستخدمين كل إمكانات رجالنا ونفوذ ساستنا، لكن الأخطر لكن مع الوقت كان سلاح التشكيك أقوى وسيلة ورغم صدور الكتاب لاحقًا إلا أننا استطعنا إخراج جيل من الأممين يشكك فيه، وإقناع قادة العالم غض الطرف عما فيه بسلاح المال الذي لا ينضب، لكن الكارثة الأكبر ظهرت قبل ذلك بقرن من الزمان عندما قام إدموند هال الفلكي البريطاني بكشف وجود أجارتا، لكنه لم يستطع أكثر من ذلك وفورًا تم التعتيم والتنديد بالنظرية، لكن في القرن الثامن عشر بطريقة ما مفكر لاهوتي اسمه ألكسندر سانت إيف تصنيف كتاب لاهوتي بفرنسا حدد موقع أجارتا بدقة، وهنا كان يجب علينا إيقافه كشف هذا الأمر فاستطعنا التدخل لدى السلطات الفرنسية حتى تم حرق جميع النسخ ما عدا نسخة اختفت تمامًا، وبعدها بمائتي عام وبمجهودات مضنية استطاع الحاخام الألماني إفرايم كارلباخ الحصول على تلك النسخة وكانت شديدة الأهمية لنا جميعًا لكن الوقت لم يحن بعد لأجارتا وظهورها فانتقلت النسخة أثناء الحرب إلى كاستنر والذي يبدو أنه لم يع خطورة الأمر، فسلمها للألمان مقابل سلامة بعض اليهود ومنذ ذلك الوقت ونحن نبحث عنها خاصة مع اقتراب الوقت وعلمنا أن الألمان يبدو أنهم قد استخدموها فعلًا.

كان ما يرويه مارك على أذني ديفيد غريب فرغم أنه يهودي إسرائيلي لم يسمع أبدًا بقصة أجارتا حتى عندما كلف بالعمل مع المركز لم يكن ما يعرفه أكثر من سر اسمه أجارتا، ظن في كثير من الأحيان أنه قد يكون مجرد سلاح ألماني لا أكثر!

ساد الصمت لحظات قبل أن يقول ديفيد:

- ولكن ما أدراكم أن الألمان قد استخدموه؟!
- هناك الكثير من الأمور المخبأة دائمًا يا صديقي ولا يمكن البوح بها والآن يجب أن نفكر بطريقة نصلح بها ما أفسدتوه!

قال جملته وهو يلتقط سماعة هاتف المكتب ليضغط عدة أرقام وينتظر لحظات قبل أن يقول وهو يضحك مرحًا:

- مرحبًا عزيزي بيتر.
- .....
- نعم هناك خبر يجب أن تعرفه النيويورك تايمز وحتى الواشنطن بوست، لقد اعتقلت الشرطة المصرية الصحفية الأمريكية سارة كاستنر وهذا كما تعلم يا صديقي ضد مسعانا لحريات الصحافة.
- ....
- أعلم أنك ستقوم بما يجب فعله، إلى اللقاء.

وضع مارك سماعة الهاتف وتنهد بارتياح شديد وقد علت وجهه ابتسامة، سرعان ما انتقلت إلى وجه ديفيد الذي استوعب الدرس جيدًا، فاختيار مارك أنطوني لم يكن اعتباطًا مطلقًا.

مصر القديمة بالقاهرة

2017

أمام بناية عتيقة زينت شرفاتها بمشربيات من الخشب المشغول والذي أضفى عليها حالة خاصة من الجمال الشرقي يحمل عبق التاريخ بين طياته...

توقفت فريد بسيارة معتز أمام البناية مع دهشة الأخير الذي نظر إليه متسائلًا:

ـ ألن تخبرني لماذا نحن هنا؟!

ابتسم فريد ابتسامة خبيثة وقال:

ـ ما زالت عمليتنا تحتاج إلى الرجل المخابراتي بقدر ما تحتاج رجل التاريخ!

رفع معتز حاجبيه دهشة وقال:

ـ بمعنى؟!

ـ ستعرف كل شيء بعد قليل.

عبر درج حجري متهالك صعد كليهما إلى الطابق الأول وأمام باب خشبي من دلفتين لا يمكن الاستدلال على لونه، أمسك فريد مطرقة خشبية على شكل قبضة يد مضمومة وطرق الباب عدة طرقات قبل أن يسمعا صوت سيدة عجوز تمهل الطارق حتى تفتح.

لم يستغرق الأمر كثيرًا حتى ظهرت سيدة طاعنة في السن محنية الظهر تتكئ على عصا من الخيزران الغليظ.

أليس هذا منزل الحاج محمود دوما؟

هزت السيدة رأسها موافقة وهي تحاول التدقيق بعينيها الضعيفتين في وجهي ضيفيها ثم تقول:

ـ نعم من أنتما؟

ـ صديق قديم لأحمد ابن الحاج دوما.

تمتمت العجوز بكلمات سباب في حفيدها قبل أن تقول:

ـ إنه بغرفته في الداخل.

قادتهما عبر الصالة ذات السقف شديد الارتفاع وقد تساقط الطلاء عنه كما عن أغلب الجدران البالية، حتى وصلت إلى باب خشبي مطعم بلوح من الزجاج وطرقت الباب ثم تركتهما لتذهب.

فتح باب الحجرة وكانت صدمة لمعتز لقد كان أمامه رجل في الخمسينات من عمره نحيل الجسد والوجه دقيق الملامح سوى من أنف مدبب ويرتدي جلباب رمادي ذو أكمام واسعة ذات الطابع الريفي.

لقد ظنه معتز شابًا بعد كلمات السباب التي اطلقتها الجدة منذ لحظات، حتى أنه كتم ضحكة مجلجلة أوشكت على الانفجار.

كانت المفأجاة أيضًا من نصيب أحمد دوما الذي تفاجأ برجلين أمام باب غرفته فتمتم قائلًا:

ـ تبًا لك من جدة خرفة.

ـ أستاذ أحمد دوما؟

هز الرجل رأسه موافقًا وقال متهكمًا:

ـ هل تقف على أعتاب حجرة نومي لتسألني عن اسمي!

لم يتمالك معتز نفسه من الضحك وهو يرى نظرة الغضب على وجه فريد، لكن الأخير رمقه بنظرة أخرسته تمامًا قبل أن يلتفت إلى أحمد وقال:

ـ معك الضابط فريد النقاش من جهة سيادية.

كانت طريقة فريد الصارمة في تعريف نفسه كفيلة لبث التوتر في نفس أحمد دوما فتلعثم قليلًا وقال:

ـ خير يا سعادة البك؟!

هدأ فريد من حدته وقال:

ـ أريد التحدث معك في شيء مهم.

لم تمض لحظات حتى كان الثلاثة يجلسون بالصالة على مقاعد من الأرابيسك المتهالكة ككل شيء بالمنزل فبادره فريد قائلًا:

ـ لقد كنت تعمل في الفندق مع والدك رحمه الله.

ـ نعم لكنني تركته قبل أن يغلق نهائيًا وتضيع أرضه.

هز فريد رأسه علامة المعرفة وقال:

ـ ما أريدك فيه يشمل مدة عملك مع والدك.

ـ حسنًا ماذا تريد؟

ـ طارق حسين؟

شرد أحمد في السقف وهو يفرك ذقنه قبل أن يقول:

ـ لا أتذكر أحدًا بهذا الاسم؟!

مال فريد إليه وقال كأنه يهمس:

ـ الخواجة طارق!

فغر أحمد فاهه وقال:

ـ آه... نعم ذلك الرجل الذي قيل إنه أجنبي!

ابتسم فريد وقال:

ـ نعم هو بالضبط.

تراجع أحمد في مقعده وقال متعجبًا:

ـ ولكنه مات منذ زمن بعيد ووقتها أخبرنا الشرطة بكل شيء فماذا تريد الآن؟!

ـ أريد شيئًا واحدًا فقط، إنه الخاتم الذي كان في خنصره.

امتقع وجه أحمد وابتلع ريقه بصعوبة وقال متوترًا:

ـ أي خاتم لا أدري عما تتحدث فالشرطة قد أخذت كل شيء، حتى الحقيبة التي.

قطع أحمد حديثه فجأة فقال معتز بانفعال:

ـ حقيبة أي حقيبة.هه؟!

نظر أحمد إلى الأرض قائلًا:

ـ لقد كانت لدى والدي حقيبة تخص الرجل حقيبة معدنية كأنها خزانة ولقد ظلت بحوذتنا حتى بعد وفاة والدي وذات يوم منذ بضع سنوات جاءني أحد الصحافيين الأجانب وأخذها بمقابل مادي كبير، وكنت وقتها في حاجة إلى المال.

ـ وماذا كانت محتويات الحقيبة؟

قالها معتز منفعلًا، على عكس فريد الذي ظل هادئًا على غير العادة، فقال أحمد:

ـ لا أدري. كانت كلها أوراق مكتوبة بلغة أجنبية وبعض التقارير الطبية، لكنهم دفعوا مبلغًا جيدًا.

ـ وماذا عن الخاتم؟!

ارتجفت شفتا أحمد وقال:

ـ لا.

أشار له فريد التوقف عن الكذب وقال:

ـ أنت تعلم ماذا يمكن أن يحدث إذا أبلغت بموضوع الحقيبة وإخفائها خاصة إذا علمت أنها قضية أمن دولة!؟

ارتجفت أوصال الرجل بشدة وقال وهو يكاد يبكي:

ـ لقد سرقته... نعم أخذته من أصبعه فلقد كنت أول من دخلت عليه عند الوفاة فانتزعت من يده الخاتم.

قال فريد:

ـ وأين هو؟

ـ لحظات وأتيك به فهو ضمن أغراض قديمة.

غاب أحمد عشر دقائق كاملة قبل أن يعود ليضع الخاتم بين يدي فريد وهو يقول:

ـ من حسن الحظ أن والدي علم بالأمر فأخذه مني وكان سبب طردي من الفندق فاحتفظ به لسنوات حتى عثرت عليه مصادفة بعد وفاته، وإلا كنت قد بعته!

هز فريد رأسه وقال:

ـ بعته لشراء الحشيش، صح؟

امتقع وجه أحمد بشدة وقال متلعثمًا:

ـ لقد امتنعت يا سيدي منذ عدة أشهر و.....

كان فريد قد نهض دون إعطائه فرصة للرد وتبعه معتز ليخرجا وسط ذهول أحمد دوما الذي ظل مأخوذًا لعدة دقائق، كانت كافية لوصول معتز إلى مقود سيارته وإلى جواره فريد الذي أخذ يقلب الخاتم في راحة يده وعقله يحلق بعيدًا بأفكاره، وقلبه يتوجه بكامل طاقته بالدعاء أن يكون على صواب.

القاهرة 1989

في غرفته الرطبة بفندق قصر المدينة، جلس أربيرت هايم الشهير بطارق حسين أو الخواجة طارق على مقعد خشبي قاسي الملمس أمام طاولة مستديرة هي الوحيدة في الغرفة.

أمسك في يديه سكينا صغيرا وأخذ يرفع طبقة الفورميكا الرقيقة بعناية فائقة حتى نجح في خلع ٢ سنتيمتر مربع من تلك الطبقة، بعدها وعلى ضوء مصباح جانبي كان قد قربه على مقعد آخر فأخذ يحفر في طبقة التبن المضغوط والمصنوع منه الطاولة الرخيصة، فحفر بحذر شديد قبل أن يتوقف فجأة ليحاول دس إصبعه في الفتحة الصغيرة التي حفرها لكنها كانت صغيرة جدًا فأدخل بهدوء وحذر نسل السكين المدبب قبل أن يضعط مرة واحدة فيظهر أمامه جسم داكن دقيق تناوله بأطارف أنامله وتأمله جيدًا قبل أن يغمغم قائلًا:

ـ مرحبًا بك يا صديق العمر.

ـ كان جسمًا أسطوانيًا صغيرًا جدًا ربما بحجم حبة بازلاء لكنه أقل سمكًا منها.

وضع الجسم أمامه قبل أن يدس يده في جيبه فيخرج جسمًا لامعًا سرعان ما ظهر أنه خاتم ذهبي براق ذو فص مصنوع من حجر كريم من تلك التي اشتهرت بها منطقة خان الخليلي المجاورة.

مرة أخرى وضع الجسم الدقيق أمامه على الطاولة وتناول السكين مرة أخرى فدس طرف نصلها في الفجوة بين جسم الخاتم المعدني وفصه وضغط إلى الخلف ليسقط الفص على الطأولة.

تناول أربيرت الفص وقلبه ليظهر تقعره فجأة فالفص كان مجوف من الداخل، هكذا طلب من بائع الأحجار أن يحفر بأداة دقيقة بباطن الفص بعد قصه بما يلائم خاتمه المشغول.

تناول أربيرت الجسم الداكن ودسه دسًا داخل التجويف فبدا الجسم مرنًا قابلًا للطي.

تناول أربيرت قارورة صغيرة صب منها قطرة أو قطرتين على موضع الفص الموجود في الخاتم، ثم أعاد الفص إلى مكانه وضغط عليه لدقيقة كاملة منتظرًا جفاف المادة اللاصقة.

ما أن اطمئن إلى أن كل شيء عاد إلى وضعه قبل ذلك الفص وعلى وجهه ابتسامة من شعر أخيرًا بالارتياح.

إنه كان يعاني كثيرًا من فكرة تركه لغرفته لبعض الوقت أثناء إجرائه لجراحة استئصال ورم أخبره طبيبه بضرورة الإسراع في إجراء هذه العملية، ولكن ما ظل يؤرقه أمرين أولهما حقيبته الجلدية التي

تكشف هويته وهذا كانت يسيرة فأمنها لمحمود دوما فهو صاحب الفندق كما أنه يثق في أمانته، أما هذا الشيء فلا يمكن أن يتركه لأحد كما لا يمكنه تحمل ضياعه ولهذا فكر في هذه الفكرة المجنونة... خاتم بفص مجوف يكون معه طوال الوقت دون أن يثير الريبة أو الشك في نفس أحد، كما أن هذا أمر منتشر بين دراويش السيد الحسين الذين يؤمنون بقوة هذه الأحجار وتأثيرها! والجميع يعلم تمام العلم أنه أحد عشاق المقام المبارك!

الآن كل شيء جاهز فقط عليه أن يذهب إلى المشفى.

القاهرة 2017

انطلقت سيارة معتز تشق طريقها بسرعتها القصوى التي يسمح به الزحام الشديد في وسط القاهرة.

كان هذا طلب فريد الذي تلقى فور مغادرتهم لشقة عائلة دوما، مكالمة هاتفية بدت خطيرة من تلك العلامات التي ظهرت جلية على وجه الأخير محاولًا كسر حدة السكون داخل السيارة بالإضافة إلى ذلك الفضول الذي يكاد أن يقتله حول ذلك الخاتم:

- لا أعلم سر أهمية هذا الخاتم وفيما تعتقد أنه قد يفيدك، رغم أنك لم تهتم لذكر حقيبة محملة بالأوراق قد تحمل الكثير بين طياتها؟!

فرك فريد جبهته وكأنه يخفف من توتره وقال:

- الحقيبة أعلم جيدًا محتوياتها فلقد أصبحت معروفة منذ ٢٠١٤ فبحث بسيط على الإنترنت عرفت بأمرها وأن

من أخذها بالفعل مجموعة من الصحفيين المهتمين وكل ما فيها عبارة عن أوراق شخصية وتقارير طبية حول حالته الصحية وبعض المعلومات عن الحرب.

ـ وماذا عن الخاتم؟! وكيف علمت بأمره؟!

ابتسم فريد وقال:

ـ يمكننا أن نرى ما ترونه أنتم... في الصورة التي عرضها علينا مختار كان الرجل يلبس خاتم في يده وكل المحاضر بأغراضه حتى ما احتفظ به مختار لم يكن بينها ذكر لأي خواتم كما لاحظت أن تاريخ مكتوب على الصورة يشير إلى موعد قريب من الوفاة...فأين يمكن أن يكون قد ذهب الخاتم؟

رفع معتز حاجبيه دهشة من براعة وملاحظة فريد الفائقة، ولكنه عاد ونظر إليه قائلًا:

ـ ولكن لماذا أثار أحمد دوما تحديدًا شكك؟!

مط فريد شفتيه وقال:

ـ عندما كنت ابحث في بداية القضية وجاء ذكر دوما مالك الفندق كان هناك عدة قضايا تعاطي متهم بها ابنه أحمد دوما وفي محضر حادث الوفاة كان أحمد هو أول من اكتشف موضوع الوفاة فكان من المنطقي لمتعاطي مخدرات أن يبحث عن أي شيء يدر عليه المال في غرفة الرجل وبالطبع الخاتم كان مطمعًا.

نظر معتز إلى فريد نظرة إعجاب حقيقية بذكاء الرجل، قبل أن يقول متسائلًا:

ـ تبقى السؤال الأهم فيما سيفيدنا الخاتم لحل ه.

لم يكمل معتز جملته عندما انحرفت سيارة دفع رباعي فجأة باتجاه سيارته فادار المقود بقوة إلى جهة اليسار متحاشيًا بصعوبة الاصطدام بإحدى السيارات العابرة!

كاد فريد أن يخرج رأسه عبر النافذة لتوبيخ قائد السيارة المتطفلة، لكن فوهة مسدس أمام عينيه مباشرة جعلته يصرخ في معتز قائلًا:

ـ بسرعة بسرعة.

كانت قدم معتز تعتصر دواسة الوقود لتصدر إطارات السيارة صريرا قاسيا.

كانت سرعة السيارة ذات الدفع الرباعي كبيرة مما جعل من المستحيل على سيارة معتز مواصلة السباق، شعر معتز برصاصة تخترق قائم السيارة خلف أذنه اليسرى.

تناول فريد مسدسه المخفي في حزام معلق بكتفه أسفل إبطه الأيسر وهو يصرخ:

ـ المكابح...المكابح

كانت حالة من الذهول والخوف تتملك من معتز، إلا أن أوامر فريد كان ينفذها أليا فاعتصرت قدمه اليسرى المكابح لتنحرف

سيارته بشدة وتدور حول نفسها لنصف دائرة وسط ضجيج أصوات مكابح السيارات وآلات التنبيه من حولهما.

كانت السيارة السوداء ذات الدفع قد تخطتهم فاختفت بين جموع السيارات.

اندفع معتز خارج سيارته بمجرد توقفها وهو يلهث من الانفعال وسباب السيارة يلاحقه دون أن يأبه لأحد.

اقترب منه فريد محاولًا تهدئته وهو يكاد يعيد مسدسه إلى مخبأه و.... صرخ فريد في معتز:

ـ احترس!

لم يكمل فريد تحذيره حتى شعر معتز بسهم ناري يخترق ذراعه الأيمن لتنفجر نافورة من الدماء.

كانت السيارة السوداء قد عاودت أدراجها عكس اتجاه الطريق وأطل من النافذة الخلفية رجل أصلع الرأس تخفي نظارته السوداء أغلب ملامحه.

انطلقت رصاصات فريد بسرعة لتصطدم بجسد السيارة التي اتضح أنها مصفحة فالرصاصات قد ارتدت عنها بعنف، وهي تنطلق لمسافة مائة متر قبل أن تستدير بسرعة معاودة أدراجها باتجاه فريد الذي وجه مسدسه باتجاه السيارة وأطلق رصاصة واحدة كبالون اختبار للزجاج الأمامي الذي اكتشف أنه أيضًا مضاد للرصاص، لكن فريد ظل في وضعية إطلاق النار ومسدسه يحتوي على الرصاصة الأخيرة لقد حسبها بعقل خبير مدرب.

كانت السيارة تسير بمنحنيات بين السيارات التي توقفت بعد إصابة سائقيها بالذعر من إطلاق النار وهي آخذة في الاقتراب أكثر فأكثر فأكثر حتى صارت المسافة لا تتخطى العشرون مترا والرجل الأصلع يطل بنصف جسده من النافذة موجهًا سلاحه كاتم الصوت باتجاه فريد وسبابته تضغط الزناد و.... انحرفت السيارة بعنف جعل سائقها يقبض بكل ما أوتي من قوة على مقودها محاولًا تفادي انقلابها.

كان فريد قد أجرى كل حساباته واتخذ قراره فكانت رصاصته أسرع من الرجل الذي طاشت رصاصته في الهواء وهو يصيب أحد إطارات السيارة فيحدث انفجاره دويًا هائلًا.

لم ينتظر فريد كثيرًا فهرع مسرعًا باتجاه السيارة غير المتزنة وكأنه يهاجم وحشًا أسطوريًا فقفز بخفة متفاديا اصطدامها به ويده بسرعة البرق تقبض على رأس الرجل المسلح وتضربه بقائم باب السيارة فيسقط سلاحه خارجًا.

كان السائق قد استطاع التوقف بالسيارة فقفز الرجل الأصلع خارجها وقد استعاد توازنه سريعًا بحكم طبيعته الجثمانية الهائلة ليواجه فريد الذي قفز دون تردد مسددًا ركلة دائرية إلى وجه الرجل جعلته يترنح قليلًا قبل أن يدور على عقبيه مسددًا لفريد لكمة خلفية تفاداها الأخيى بلياقة عالية قبل أن تغوص قبضته في معدة الرجل الذي استوعب الدرس أخيرًا فقفز داخل السيارة التي انطلقت كالصاروخ بين السيارات رغم إطارها الممزق.

مسح فريد بأنامله عرق من على جبهته قبل أن يلتقط مسدسه وسلاح الرجل ويعود إلى معتز الذي سقط بجوار سيارته وجرحه ينزف بشدة، فساعده فريد إلى المقعد الخلفي للسيارة ثم عاد ليجلس خلف مقود السيارة وهو يشعر بصوت عقله يعمل كمحرك عتيق يهدر داخل رأسه بقسوة.

نيويورك - 2017

دفن مارك أنطوني وجهه بين كفيه وزفر بشدة، في حين نظر إليه ديفيد في دهشة فهو يجلس أمام مارك منذ نصف الساعة كاملة دون أن ينبث ببنت شفاه وكأنه فقد النطق وهو ما زال يدفن رأسه بين راحتيه ويزفر بضيق بين فينة وأخرى.

كان هذا عكس طبيعة مارك التي عرفها ديفيد منذ قابله لأول مرة فالأول معتد جدًا بنفسه والأحاديث الطويلة عن أمجاده وأمجاد مركزه! كما أن الأغرب أنه هو من طلب من ديفيد الحضور هذه المرة مما جعل الأخير يقول:

ـ هل يمكنني معرفة سبب الدعوة للحضور؟ ولماذا أنت صامت هكذا؟!

رفع أنطوني رأسه ناظرًا إلى ديفيد وقد احتقن وجهه بشدة فصار ككتلة من الدماء قبل أن يبتنهد بعمق ويقول:

ـ سيد ديفيد؟ ألم أخبرك قبل ذلك أن أعمالكم الصبيانية ستدمر كل ما صنعناه على مر العقود الماضية؟!

رفع ديفيد حاجبيه دهشة، فهو منذ مهاجمة رجاله لمختار وتقبله لتوبيخ مارك واعترافه الضمني بتفوق ذكاء الرجل، لم يتدخل في أي شيء في العملية!

ـ وما سبب هذا الكلام الآن؟!

نهض مارك من من خلف مكتبه وهو يعض شفتيه غيظًا واقترب من أذن ديفيد كأنه يهمس للأخير وقال:

ـ لماذا تصرون على إفساد كل شيء؟!

ـ إننا لم نفعل أي شيء منذ طلبت أنت ذلك في لقائنا الأخير!

ضحك مارك متهكمًا وقال:

ـ هل تظنني غر ساذج حتى تنطلي على تلك الكذبة؟!

فغر ديفيد فاهه متعجبًا وقال:

ـ لا أفهم تحديدًا عما تتحدث؟!

غمز مارك لديفيد وقال:

ـ لماذا قام رجالك بمهاجمة الضابط المصري ومعتز وفي الشارع وعلى مرأى ومسمع من الجميع؟!

جحظت عينا ديفيد بشدة وقال:

ـ رجالي؟ مستحيل رجالي امرتهم جميعًا بالابتعاد عن الصورة تمامًا والاكتفاء بالمراقبة!

عقد مارك حاجبيه وفكر قليلًا قبل أن يقول:

- إذن من هؤلاء الرجال الذين هاجموهما؟!

مط ديفيد شفتيه وقال:

- لقد ظننتهم رجالك عندما أخبرني عناصري هناك بالهجوم ظننتهم رجالك خاصة وأن معلوماتي تفيد أن الرجلين ربما حصلا على شيء ذي أهمية من صاحب الفندق!

قال مارك وهو يلقي بجسده على المقعد المقابل لديفيد:

- ليس لدي عناصر قتالية هناك!

زام ديفيد وقد تملكته الدهشة وقال:

- لعلهم الروس فأنت تعلم إنهم مهتمون بالأمر منذ الحرب العالمية الثانية!

هز مارك رأسه نافيا وقال:

- الروس أذكى من التدخل المباشر، كما أن علاقتهم جيدة بالمصريين مما يجعل لديهم الثقة بأنهم سيحصلون على ما يريدون دون تعرض عناصرهم للخطر، والأهم أنهم منذ وصولهم للقاهرة وعناصرهم تحت أعيننا وهم لم يبرحوا دور المراقب!

فرك ديفيد ذقنه وشرد قليلًا قبل أن يقول:

- إذن هناك عناصر مجهولة دخلت في اللعبة!

- بل عناصر خطيرة فتقرير رجالي هناك يتحدثون عن سيارة مصفحة من المستحيل وصولها لمصر كما أنهم يشيرون

إلى نوع رصاصات غير معروف! والأغرب أن السيارة اختفت تمامًا ولم يستطيع رجالنا العثور على أي أثر لها رغم انفجار إطارها!

جحظت عينا ديفيد دهشة وقال:

- من هم إذن؟

زفر مارك انطوني بعمق وقال مغمغمًا:

- يبدو أننا أمام مواجهات لم يحسب حسابها مطلقًا.

لم يكن يدري وقتها أنه معه كل الحق فيما يقول.

القاهرة 2017

مستشفى عسكري بأحد أحياء القاهرة.

استفاق مختار من غيبوبة أصابته فور دلوفه من باب مقر الجهة الأمنية التي طلب من سائق التاكسي التوجه إليها وفور وصوله إلى نقطة الحراسة المتاخمة للمقر ونطق اسمه وطلب مقابلة فريد النقاش حتى تهاوى ساقطًا جراء نزيف جرحه الذي فقد من خلاله الكثير من دمائه، فلم يستطيع جسده المقاومة أكثر من ذلك فسقط مغشيًا عليه، وبعد التعرف عليه نقله رجال الأمن بناءا على تعليمات عليا إلى مستشفى عسكري لإسعافه فورًا.

لم يستطيع مختار تحديد الفترة التي قضاها فاقدًا الوعي ففتح عينيهوبصعوبة محاولًا تبين المكان المحيط به لكن ذلك الدوار اللعين لم يمهله كثيرًا ورغم محاولته للنهوض لكنه سقط مرة أخرى في فراشه متأوهًا من وخزة ضربت كتفه المصاب.

مرت دقيقة كاملة أو أكثر حتى استطاع أن يفتح عينيه مرة أخرى ليقع نظره على شبحي شخصين جلسا بالقرب منه على مقعدين.

كانت الرؤية في البداية ضبابية قبل أن تتجلى الصورة رويدًا رويدًا ليستطيع تمييز ملامح فريد ومعتز الذي ثبت ذراعه إلى عنقه بحزام.

ـ أين انا؟!

قالها مختار في إعياء محاولًا النهوض مرة أخرى، إلا أن الم كتفه حال دون ذلك في حين سمع صوت فريد قائلًا بود:

ـ سيد مختار عليك أن تهدا لقد نزفت الكثير من الدماء.

استعاد مختار كامل وعيه دفعة واحدة وهو يتذكر ما حدث ليقول:

ـ نعم إنهم أرادوا قتلي.

قال فريد:

ـ نعم...ولكن من هم؟!

مط مختار شفعيه وقال:

ـ لا أعلم من هم لكنهم كانوا يسألون أيضًا عن أجارتا.

ـ ولكن لماذا يحاولون قتلك؟!

قالها فريد متعجبًا فقال معتز بتوتر:

ـ كما حاولوا قتلنا نحن أيضًا، وكما قتلوا سارة كاستنر!

جحظت عينا مختار وهو يلحظ ذلك الجرح بذراع معتز كما هاله ما سمعه لمقتل سارة فقال منفعلًا:

ـ ومن هؤلاء ولماذا؟!

شعر مختار بوخزة في كتفه من جراء انفعاله فتأوه ألمًا.

إنهم غالبًا يريدون قتل كل من لديه معلومة عن هذا الأمر؟!

قال معتز بحيرة:

ـ كيف ذلك وهم انفسهم ما زالوا يبحثون عنه؟

مط فريد شفتيه وهو شارد الذهن ليقول:

ـ لا أعرف حقيقة لا أعرف.

ـ أحدهم أصيب في شقتي... نعم اصابته رصاصة زميله!

نظر معتز إلى فريد متسائلًا أن كان هناك معلومات لديه، فأسبل الأخير جفنيه وهو يزدرد لعابه ويقول متلعثمًا:

ـ لقد مات.

نظرا إليه في دهشة وقال مختار:

ـ إذن حددتم هويته!

هز فريد رأسه آسفًا وقال:

ـ هناك أشياء لا يمكنني البوح بها، لكن فقط يمكنني القول إن كل شيء عن هذه القصة تم تعتيمه بتوجيهات سياسية.

قال عبارته أمام دهشة مختار ومعتز، في حين أخرج فريد هاتفه الذكي وداعب لوحته بسرعة قبل أن يناوله معتز قائلًا:

ـ ربما هذا الموضوع سيوضح لكما كيف حدث الأمر.

طالع معتز المكتوب في صمت وعيناه تزداد اتساعا حتى كادتا تقفزان من محجريهما، فقال مختار في عصبية:

ـ ماذا هناك؟!

أعاد معتز هاتف فريد إليه وقال:

ـ لقد اتهموا الشرطة المصرية بقتل سارة، ويصورون للعالم في كل مكان أنها تعرضت للتعذيب!

قال مختار مشدوهًا:

ـ الضغط إذن؟!

قال فريد الذي نكس رأسه:

ـ هناك أمر آخر يجب أن تعرفاه جيدًا.

توجهت عيونهما إليه وهو يردف مترددًا:

ـ لقد صدرت أوامر عليا بالتوقف عن تتبع هذه المسألة وتسليم كل ما حصلنا عليه من معلومات فورًا.

ـ تسليمها لمن؟!

قالها معتز بدهشة، في حين مط فريد شفتيه قائلًا:

ـ لا أعلم تحديدًا.

قال مختار وهو يبتسم ساخرًا:

ـ لقد صنعوا فزاعة تجبرنا على تنفيذ أوامرهم مرغمين كما حدث مسبقا عندما تسلموا الأحراز!

هز كلا من معتز وفريد رأسيهما موافقين، قبل أن يلتفت معتز فجأة قائلًا:

ـ لماذا نحن هنا إذن؟!

نظر فريد إليه متعجبًا وقال:

ـ هل تريدان الاستسلام؟!

قال مختار متعجبًا من نبرة فريد الحماسية وقال:

ـ وماذا يمكنك أن تفعل؟

ابتسم فريد وغمز بعينيه قائلًا:

ـ لن يمكنني التوقف عن هذه النقطة مهما كلف الأمر!

قال معتز:

ـ وكيف يمكنك الاستمرار وقد استولوا على كل شيء؟!

ضحك فريد بشدة وقال وهو يخرج من جيبه جسم بلاستيكي دقيق ويقول:

ـ ما زال لدينا هذا، وكذلك ما لدي مختار.

قالها وغمز بعينيه لفريد الذي ارتفع حاجباه دهشة وقال:

ـ وماذا لدي؟!

ابتسم فريد وقال:

ـ لا تنس أنني ضابط أمن وأستطيع قراءة الكذب في العيون، وعندما قابلناك للمرة الأولى عرفت جيدًا أنك تخفي أكثر مما تبدي.

بدت نظرة حزينة على وجه مختار وقال:

ـ إنه سر أؤتمنت عليه ولا يمكنني البوح به.

جحظت عينا معتز دهشة وقال:

ـ هل لديك المزيد حقًا؟!

هز مختار رأسه مجيبًا:

ـ بلى

ـ هات ما عندك إذن؟!

أشار فريد إليهما بالتوقف عن الحديث وقال:

ـ إن كان يجب علينا أن نكمل فيجب أن نخرج من هنا فورًا.

قال معتز متعجبًا:

ـ إلى أين؟! ومختار ما زال مريضًا؟!

نهض مختار من سريره محاولًا ألا يسقط أرضًا وقال:

ـ إذن لنغادر الآن وفورًا.

ـ وما هي سوى دقائق حتى كان ثلاثتهم يغادرون المشفى العسكري بسيارة معتز التي أحضرها فريد معه عند نقله إلى المشفى.

مدينة سانت بطرسبورج بروسيا - 1966

ظل محفوظ الشيمي مستغرقا في مطالعة مجموعة من الكتب في مكتبة جامعة بطرسبيرغ العملاقة، وقد صار هذا دأبه منذ عودته من إجازته الأخيرة بمصر، فلقائه الأخير مع ديبوش الطبيب الألماني كان له الدور الأكبر في بحثه الذي عكف عليه منذ سنة تقريبًا لكنه لا يزال أمام غموض مريب وكأنما استطاع شخص ما محو كل ما يخص هذه المرحلة من التاريخ.

زفر محفوظ بشدة وهو يطوي مرجعا جديدا ويغمض عينيه محاولًا إراحة ذهنه المجهد فلم يستفيق إلا على صوت مميز يقول:

ـ يبدو أنك فشلت في العثور على شيء للمرة المليون؟!

فتح محفوظ عينيه ليجد أمامه رجل قصير القامة بدين قد أنتفخت أوداجه بشدة متورد الوجنتين ذو شاربين كثين وعلى محياه ابتسامة ودودة هادئة وقد أضفى عليه معطفه الطويل ونظارة الوجه

مع تلك الشعيرات المتناثرة في رأسه بعشوائية طابعًا أسطوريًا لأولئك العلماء المجانين.

ابتسم محفوظ وهو يرى فيودور ستانيسلاف واقفًا أمامه وقال مرحبًا:

ـ مرحبًا عزيزي فيودور منذ متى وأنت واقف هنا؟

ضحك فيودور حتى اهتز بدنه السمين كله وهو يقول:

ـ منذ عقود ياصديقي.

أردف فيودور حديثه وهو يسحب مقعدًا ويجلس في مواجهة محفوظ ويقول مردفًا:

ـ لم تجب عن سؤالي بعد؟!

هز محفوظ رأيه نفيا وقال:

ـ يبدو أنني ابحث عن إبرة في كومة من القش!

تناول فيودور زجاجة صغيرة من الجيب الداخلي لمعطفه ارتشف رشفة سريعة قبل أن يعيدها إلى مخبأها وقال:

ـ ماذا لو وجدت تلك المعلومات في بطون الناس بدلًا من الكتب؟

نظر إليه محفوظ متعجبًا وقال:

ـ ماذا تعني؟!

ـ اعني أن مثل هذه الأمور لا تؤخذ من الكتب العلمية المستندة على الأدلة المادية وانت أكثر الناس بحكم تخصصك تعلم أن أمور الميوثولوجي لا تشملها مراجع

تبحث الحقائق بل روايات تناقلها العامة تحتوي شطح خيالاتهم.

تعجب محفوظ من حديث فيودور المنطقي فطالما أثار هذا القصير اعجابه حتى في مزاحه الظريف الذي عادة ما يفتقده الروس بصرامتهم وجمودهم!

ـ وعند من يمكنني أن أجد ما أريد؟!

ـ عند رجل كان ضمن الوفود الأولى التي وصلت إلى هناك فشاهد كل شيء بنفسه، بل وظل رافضًا لسنوات الخطاب الرسمي الذي أخذ في التضليل وإخفاء حقائق استطاع أن يعلمها بنفسه!

ـ ومن هذا الرجل؟!

ـ صديقك فيودور ستانيسلاف!

اتسعت عينا محفوظ من الدهشة وقال:

ـ أنت؟!

ابتسم فيودور وقال:

ـ هو بشحمه ولحمه، ولكن لا يمكننا الحديث هنا فربما وجبة عشاء روسية ستفي بالغرض.

كانت دعوة محفوظ للعشاء في أي وقت آخر شبه مستحيلة فهو بعيد كل البعد عن الحياة الاجتماعية وقد ظل طوال سنوات عمله لا يغادر الجامعة إلا إلى منزله أو إلى المكتبة وربما بعض الندوات

العلمية، أما ومع إغراء المعلومة فهو مستعد لقبول كسر روتين حياته وقبول الدعوة.

وفي المساء كان بالفعل محفوظ يجلس على مقعد وثير أمام مدفأة أنيقة قد اشتعلت لتضفي الدفء على غرفة الضيوف بمنزل الأستاذ الروسي البدين فيودور ستانيسلاف الذي اجترع عدة كؤوس من الفودكا مقابل قدح القهوة الذي ظل محفوظ ممسكًا به وهو في انتظار بدء ذلك البدين الثرثار للدخول الموضوع، ولم يطل انتظار محفوظ فلقد نظر إليه فيودور قائلًا:

ـ أعلم أن فضولك كبير لسماع ما تريد؟!

هز محفوظ رأسه موافقًا ولسان حاله يقول «تبًا لهؤلاء الروس»

قال فيودور:

ـ هل سمعت يومًا عن هتلر؟!

كان سؤال شديد الغباء يصدر من فم ذلك الثمل الأحمق فيبدو أن الخمر قد أضر بعقله أو هكذا تصور محفوظ فنظر بدهشة إلى فيودور ولم يعلق، فانفجر الأخير ضاحكًا وقال:

ـ صدقني لست ثملا كما تعتقد بل اتحدث بجدية، أن ما يعرفه الجميع أن هتلر زعيم مجنون تسبب في حربه لدمار لم ترى البشرية مثله، لكن هذا الجانب المعلن فقط.

هز محفوظ رأسه متابعا لحديث فيودور الذي قال مستدركًا:

ـ لقد كان هتلر تابع لطائفة شيطانية تعود إلى فترة طويلة قبل ظهور هتلر نفسه كان مقرها أو معبدها الرئيسي بقلعة

فيفيلسبرج، والتي تصادف دخولي إليها ضمن قوات الحلفاء حتى دخلت إلى تلك القاعة.

شرد فيودور وكأنه يجتر ذكريات من بئر سحيق قبل أن يستدرج قائلًا:

- تبدو البراءة على القاعة الدائرية الكبيرة الكائنة في قبو قلعة فيفيلسبرغ عند إلقاء أول نظرة عليها بحجارتها المصقولة الجميلة التي تزين أرضيتها وبأعمدتها الصخرية المقنطرة وببهاء سقفها الملكي العالي. ويتوسط تلك القاعة هيكل (مذبح) دائري تؤدي درجاته الملمعة صعودًا إلى حجر متكسر ومحروق ومن ذلك المكان (المنصة) يمكن ملاحظة ١٣ مشعلًا مضيئًا ومعلقًا على الجدران الدائرية للقاعة. لكن عندما تحدق لأعلى السقف ستصيبك الدهشة لما ترى صليبًا معقوفًا ضخمًا! كانت تلك القاعة معبدًا مركزيًا للطائفة التي صنعت ووجهت الحزب الألماني النازي. حيث كانت جماعتهم تسمى بـ فريل Vril ويضم ذلك المجتمع عددًا من أتباع هتلر المخلصين مثل هيملر وبورمان وهيس. وبالنسبة للجماعة يمثل هتلر محور الطائفة حيث يعتبر وسيطًا روحانيًا على اتصال بقوى خفية تساعده على بناء أمة عظيمة من العرق الآري الأبيض وبعض أتباع تلك الجماعة يرونه على أنه مسيح الظلام.

قال محفوظ مقاطعا:

ـ ليس هذا بالأمر الجديد، ولو إنني كنت اشكك فيه، لكن ما زلت لا أفهم ما علاقة كل هذا ببحثي؟!

اجترع فيودور كأس الفودكا دفعة واحدة فاحتقن وجهه بشدة قبل أن يقول:

ـ عليك أن تتحلى ببعض الصبر يا عزيزي، هذه البداية فقط، أول خيط!

ـ حسنًا هات ماعندك.

صب فيودور كأسا آخر من قنينتة الفودكا وبعد أن ارتشف رشفة جعلت وجهه يتورد بشدة قال:

ـ درج المؤرخون على التقليل من أهمية أفكار تلك الطائفة على جذور النازية، ربما لأنهم لم يروا في تلك الطائفة مبررًا كافيًا لارتكاب جرائم الحرب الشنيعة! لكن الحقيقة أن هناك قصة لم ترو عن العقيدة الدينية السرية لتلك الطائفة داخل ألمانيا الفاشية. ومما يدعو للغرابة أن تلك القصة تستند إلى رواية من الخيال العلمي في القرن التاسع عشر تتنبأ بالأطباق الطائرة وبعرق من المخلوقات الغريبة يعيش في مركز الأرض وبقوة غامضة تدعى فريل Vril يقول البروفسور نيكولاس جودريك كلارك والذي يقود فريقًا لدراسة الأيديولوجيات والعقائد في جامعة إكسيتير أن: «أساطير هذه الطائفة لعبت دورًا أساسيًا في نشوء

فكرة النازية، وعندما نفكر بهذه الأفكار نجدها مجنونة في عصرنا هذا، إلا أنها شكلت فكر الحزب النازي في بداية نشوئه ولعبت دورًا فعالًا وخطيرًا في تاريخ القرن العشرين».

وخلال قيادتهم للحزب النازي، مارسوا على الأرض أقوى أفعال الشيطان في القرن العشرين». كانت أتباع جماعة فريل تعمل بشكل سري كامل بهدف الترويج لفكرة قوة العرق الآري وكانت أفعالهم تتراوح ما بين الاغتيالات السياسية المباشرة إلى تحضير أرواح الموتى وتقديم الأضاحي البشرية واستدعاء القوى الخفية أو فريل من خلال العربدة الجنسية أو حفلات الجنس الجماعي.

ولفهم سر تعلق الحزب النازي بفكر الطائفة علينا أن نعود للماضي وإلى أيام العهد الفيكتوري ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت بريطانيا وألمانيا مفتونة بفكرة الطائفة، في ذلك الوقت كان من قلة الاحترام ألا تنتهي أمسية حفلة العشاء بإقامة جلسة تحضير أرواح أمام الضيوف المدعوين. كذلك شهدت تلك الفترة اهتمامًا كبيرًا في غموض الشرق وزعماء العقائد الدينية مثل مدام بلافاتسكي، كانت بلافاتسكي تعتقد بأن الأوروبيين ينحدرون من عرق من المخلوقات يشبه الملائكة يدعون بـ الآريين، وتزعم بأن الآريين استخدموا قوى روحية خفية لبناء الأهرامات

وحضارة أطلنطس وشبكة من المدن تقبع تحت القارة القطبية الجنوبية (اقرأ عن نظرية الأرض المجوفة) وبأن سلالتهم وجدت في جبال الهيمالايا وإشارتهم هي الصليب المعقوف (سواستيكا)[1]* وهي في نفس الوقت إشارة الهندوس القدامى والتي ترمز للحظ!

وكما أخبرتك سابقا لقد صيغت تلك الأساطير وغيرها في رواية الخيال العلمي The Coming Race أو «العرق القادم»، في هذه الرواية يحكي إدوارد بولوير ليتون عن أناس غرباء يدعون بـ فريليا Vril Ya عاشوا في مركز الأرض وامتلكوا قوة جبارة باستخدام قوة تدعى فريل كانت تستخدم أيضًا في تسيير الأطباق الطائرة. تلقت راوية العرق القادم وما يحيط بها من غموض الأجواء المناسبة لانتشارها خصوصًا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة مُرة لألمانيا، ومن ثم وقعت ألمانيا في قبضة حكم ملكي عنيف حضن سياسيين متطرفين بأفكارهم وزعماء جماعات طائفية تصارعوا على السلطة وتراست زعامتهم جماعة ثيول Thule ودائرتها الداخلية التي تدعى جماعة فريل Vril، وكان من الواضح إقامة جماعة فريل لحفلات عربدة جنسية بهدف استدعاء طاقات خفية

(١) ولقد ظهر بعد تلك الفترة أيضًا جماعة الرائيليين, والتي تؤمن بأن البشر صنعهم كائنات فضائية, ومن العجيب أن شعارهم القديم كان الصليب المعكوف داخل نجمة سداسية (نجمة إسرائيل), وكانت بداية تأسيس جماعتهم في سبعينات القرن العشرين

ولصنع وقيادة جيل جديد من ذلك العرق المتفوق من أطفالهم وإكثار نسلهم في ألمانيا المدمرة بعد الحرب. وقيل إن النساء في حفلات العربدة تتلبس فيها الأرواح وتبدأ الكلام على لسانهن فكان كل ما يقال منهن يعامل بجدية شديدة من أتباع الجماعة.

لكن الجانب المظلم من جماعة فريل يتكشف عندما نعلم ميلهم الطبيعي للتضحية بالأطفال الصغار كقرابين، حيث كانوا يطعنونهم في الصدر ويقطعوا حناجرهم كما يقول مايكل فيتزجيرالد. فبعد تزايد نفوذهم في العشرينيات وفي مدينة ميونيخ اختفى مئات الأطفال حيث يعتقد أن العديد منهم قتل من قبل هذه الجماعة لاستدعاء طاقة فريل، كان هدف جماعة فريل الرئيسي هو البحث عن المسيح الألماني الذي سيقود الآريين للهيمنة على العالم وسيقضي أيضًا على العروق الأخرى خصوصًا اليهود وهذا ما تكهنت به روح تصف نفسها بـ «وحش كتاب الوحي» وقيل إن تلك الروح صرحت بأن رجلًا اسمه هتلر سيمسك بزمام الأمور ويقود الآريين للنفوذ وذلك في جلسة تحضير أرواح حضرها ألفريد روسينبرغ وديتريش إيكارت وهم من أتباع جماعة فريل. وبالفعل وفي غضون أسابيع قليلة بدأ شاب متحمس (يلبس ملابس رثة) بحضور اجتماعات جماعة ثيول Thule وكان اسمه أدولف هتلر. لمحت الجماعة

بسرعة قدرات هتلر فاستغلت شخصيته الجذابة المدهشة، فباستطاعته تحويل حشود الجماهير إلى مجرد عبيد مطيعين بشكل هستيري كما لم يستطع أقوى الرجال من الإفلات من جاذبيته وبدت القوة كأنها تستمد من خلاله كما كانت أمواجًا من المشاعر تجلد أولئك المحيطين به بجنون وتأسر عقولهم.

ازدرد فيودور لعابه وأخذ نفسًا عميقًا ليلوذ بصمت طويل وعيناه تتابع محفوظ الذي يفكر محاولًا تحليل هذا الكم من المعلومات التي سردها فيودور العجوز عليه توا ومحاولة ربطها بما لديه قبل أن يعتدل في جلسته ويقترب بعنقه قائلًا:

ـ ما زلت لا أستطيع الربط بين ما ذكرته وماحدثتك عنه عن مطاردة اليهود للألمان بحثًا عن سر خطير متعلق بأجارتا وببحثي علمت أن أجارتا عبارة عن مكان في جوف الأرض مليء بالكنوز يشبه إلى حد كبير أفكار بعض روايات الخيال العلمي!

ضحك فيودور قبل أن يقول:

ـ وما مصدر معتقدات جماعة فريل؟!

ـ رواية العرق القادم!

ـ لو نظرت متفحصًا للأمر من زاوية جديدة تجد أن المنطلق واحد فالفكرة الرئيسية تتحدث عن مدينة في مكان ما في جوف الأرض يسكنها عرق متطور والألمان يبحثون عن

مسيحهم كما يبحث اليهود عن مسيحهم، الفارق أن اليهود ينتظرون ظهوره أما الألمان بحسب ما أخبرتني من صديقك أنهم قرروا الذهاب للبحث عنه بأنفسهم.

جحظت عينا محفوظ بشدة وهو يرى الصورة تتجلى براقة واضحة كشمس الظهيرة في كبد السماء، شيء رآه محفوظ بمنظور مرعب جدًا ربما لا يمكن للعجوز فيودور ستانيسلاف أن يراه، إنهما الآن خصمان يتسابقان للوصول إلى النهاية.

القاهرة 2017

انتهى قدح الشاي في يد مختار فوضعه أمامه على طاولة مستطيلة تتوسط عدة مقاعد خشبية بصالة شقة معتز المتواضعة الأثاث وقد اتخذ كل من معتز وفريد مقعدين آخرين، وقد لاذا بصمت مهيب بعد أن انتهى مختار من قصة والده مع فيودور وتلك المعلومات التي جعلت رأس فريد يدور بشدة فهو كرجل عسكري تعد هذه هي المرة الأولى التي تصادفه فيها تلك الحياة المليئة بالأساطير والخرافات!

أما معتز فأخذ عقله العلمي الباحث في العمل بقوة وهو يحلل كل كلمة سمعها، لقد كان أمام بحر غزير من التاريخ الغامض فرغم كل الكتب والمراجع التي امتلأت بها حياته لم يكن أبدًا يتوقع في أكثر أحلامه شطحًا أن تكون أجارتا حقيقة، بل ويكاد يفقد حياته بسببها!

قال مختار وهو يتابع تجهمهما:

ـ لكن والدي قرر إنهاء بحثه في هذا الموضوع نهائيًا بعد تلك الجلسة حتى فاجأته أنا بما حدث في قضية طارق أو أربيرت هايم.

قال معتز متعجبًا:

ـ لماذا؟

صمت مختار لحظة قبل أن يقول:

ـ لم أع وجهة نظر أبي وسبب إصراره على سرية تلك المعلومات حتى كان ذلك اليوم الذي قتل فيه والدي.

استحالت نبرة مختار في هذه اللحظة إلى الأسى لتتلاشى تدريجيًا وهو يقول مردفًا:

ـ قررت وقتها أن أفهم ما كتبه أربير في مفكرته الخاصة.

جحظت عينا فريد ومعتز وهما يسمعان للمرة الأولى بقصة المفكرة، فقال معتز مندفعًا:

ـ أية مفكرة؟!

قال مختار:

ـ مفكرة كانت ضمن حاجيات الرجل استطعت أن أخفيها عن الجميع حتى والدي، كان ما بها مكتوب بالألمانية، بعد قتل والدي استعنت بمترجم لترجمتها.

ـ وعلام احتوت؟!

ـ كانت مجموعة متنوعة من ملاحظات عن شيء ما وبعض المذكرات البسيطة، لكن أهم ما جاء فيها هو ذكر لطريق مودي إلى أجارتا كان طوال تلك السنوات يبحث عنه اربيرت، وما زاد الأمر سوء وجعلني أعي ما حدث هو حديثه عن ملك العالم وما أسماه بمسيح الظلام، وكانت الضربة القاضية لأدفن هذا السر نهائيا جملة كتبها في النهاية ما زلت أحفظها عن ظهر قلب.

قال معتز متلهفًا:

ـ وما هي؟!

ـ «يجب أن يموت سري معي، فمعرفة مكانهم يعني الإسراع بالخروج إلى العالم، ولقد علمني الإسلام شيئًا جديدًا أننا نحفر قبرًا كبيرًا يسع العالم كله»

تبادل فريد ومعتز النظر بعدم فهم فقال الأول:

ـ وماذا من المفترض أن نفهم من هذه المقطوعة؟!

قال مختار بحزن:

ـ تعني أنه إذا اكتشف أحد الطريق إلى أجارتا فيعني هذا نهاية العالم.

ـ ما زلت لا أفهم؟!

قالها فريد بعصبية إلا أن معتز قال بحماس:

ـ لقد علمه الإسلام هذا هو المفتاح.

ـ بالضبط يا دكتور إنها الميثولوجيا الإسلامية بالضبط.

تعجب فريد من ذلك الحوار الذي بدا غامضًا فقال مستفهمًا:

ـ هل يمكن لأحدكم أن يشرح لي عما يدور الحديث هنا؟!

نظر إليه معتز مبتسمًا وقال:

ـ دعني أشرح لك كل شيء، الموضوع متعلق بمعتقد ديني ربما اتفقت عليه معظم المعتقدات باختلاف مصادرها، وهو معتقد المسيح القادم أو المخلص، وفي قضيتنا يؤمن أعضاء الطائفة بـ فريل أو مسيح الظلام، وإذا نظرنا لليهودية فهم أكثر المعتقدات تعلقًا بفكرة المسيح المخلص والذي من أجل ظهوره يفعلون كل شيء، ولقد تسرب محضر اجتماع للصهاينة منذ عدة قرون مصادفة يوضح كل مخططاتهم للوصول إلى هذا المسيح القادم أو تمهيد العالم لظهوره وتقلده ملك العالم حاكمًا باسم اليهودية! أما الإسلام فقد أوضح شيء، لاربير لم يكن يعيه قبل دخوله الإسلام، فبحسب المعتقد الإسلامي أن هناك مسيح آخر هو من سيظهر وهذا المسيح سيتسبب في دمار العالم فكما أسماه الإسلام المسيح الدجال، وهذا ما يعنيه اربير هايم أو طارق في مفكرته عند دخوله الإسلام اكتشف أن مشروعه الألماني لن يكون خيرًا على البشرية بل وبالًا.

قال فريد متعجبًا مما يسمع:

- هل كل هذا الضجيج لخص في إشكالية دينية؟!

هز مختار رأسه موافقًا وقال:

- كل الموضوع يدور في حيز المعتقدات هذه هي الحقيقة.
- يا سادة ربما هو ليس وقت لمحاضرة في الأساطير، لكن هذه المعضلة قديمة قدم التاريخ نفسه، وما نحن بصدده تجسد لهذه الأساطير، إن ما يحدث باختصار هو استحضار لابن الشيطان.

رفع فريد حاجبيه دهشة من كلام معتز وقال:

- ابن الشيطان؟

هز معتز رأسه وقال:

- ابن الشيطان (بالإنجليزية: Son of the devil) وهو مصطلح فلسفي وديني يدل على نبي الشيطان الذي يأتي إلى العالم ويحكمه لقرون عديدة، ويظهر من رحم سيدة عذراء في شهر الموت حسب تقويم حضارة شعب المايا ما يقابل شهر أكتوبر في التقويم الميلادي. ليكون ميلاد ابن الشيطان في ١٣ من أكتوبر يملك قوة الشيطان الخارقة من أبيه وقداسة الأم العذراء وهنا يدل هذا الكائن على الرفض للطرفين واختيار التوازن. يعتبر تجسيدًا للإلحاد في كثير من الثقافات والأديان باختلاف المسميات وفي أحيان كثيرة عدًوا ونقيضًا للإله فهو ممثل لصراع الشر والخير

وكل ما ينطوي تحته من أفعال وأفكار في حرب مقدسة أو كونية مع قوى العالم من خير وشر معًا، غير راض بخلقة الكون ومتمرد.

هذا المصطلح ظهر في حضارات شعوب الشرق مثل السومريين والفراعنة والأشوريون والميديين. بصور مختلفة ولكن ما يوحد هذه الأساطير هو تاريخ ميلاد الكائن.

ظهر هذا المصطلح بشكل مثير للجدل وتحول إلى مذهب بعد أربع مائة عام من ظهور المسيح باسم ابن الله في أورشليم القدس حاليًا. بشكل ثوري من قبل منظمات العالم القديم وأهمهم المتنورون في شرق أوروبا. ولكن سرعان ما اختفت هذه الأسطور التي ظهرت من قبل المتنورين مع ظهور الإسلام في أرض العرب.

تعود رواية ابن الشيطان وتاريخ الثالث عشر من أكتوبر المقابل لشهر الموت في الأصول إلى أساطير الحضارات السومرية والفرعونية لكن بصورة مختلفة عن المسيحية واليهودية والإسلام وبعض الديانات الهندية.

قال مختار مكملًا حديث معتز:

ـ وبناءً عليه اكتشاف هذا السر سيعجل بظهور هذا الشيطان.

زام فريد وقد استطاع عقله الآن استيعاب الأمر تمامًا ليحتقن وجهه فجأة فنظر إليه معتز متسائلًا وقال:

ـ ماذا هناك؟

قال فريد بصوت مضطرب:

ـ هل تعلمان لماذا أصريت على إكمال المهمة؟

هزَّا رأسيهما نفيًا فقال مردفًا:

ـ لقد ظهروا بالفعل وهذا ما لا يعلمه أحد حتى الآن.

ساد الصمت على الجلسة فجأة وقد فغرت أفواههم، وعقولهم هلعًا ترسم سيناريو واحدًا فقط لا بديل له... إنها النهاية.

بستان البوهيمان

مقاطعة سنوما «كالفورنيا» - 2017

على مسافة ٨٠ ميلًا شمال مدينة سان فرانسيسكو وتحديدًا بمقاطعة سنوما تقع مزرعة بوهيمان جروف المترامية الأطراف حيث تبلغ مساحتها ٢٧٠٠ فدان.

يحيطها سياج شديد التأمين والحماية، وعلى بوابة حديدية عملاقة خط على دلفتي البوابة الفولاذية بحروف متناسقة إنجليزية «نسج العناكب لا يأتي هنا».

ربما أي من أولئك الذي رماهم حظهم العثر للمرور من هنا لن يعي معنى تلك الجملة الغامضة، بل لن يختر على باله أبدًا أن هذه الكلمات القليلة الغامضة تحتوي بداخلها سياسات العالم الاقتصادية والسياسية.

منذ تأسس النادي الغامض على يد الممثل المسرحي الإنجليزي هنري ادوورد عام ١٨٧٢ م، وما لا يعرفه الجميع أن هذا المكان شهد ولادة أهم حدثين في التاريخ الحديث بأثره؛ ففي نفس المكان كانت اللبنة الأولى لبناء القنبلة الذرية الأمريكية في ثلاثينيات القرن العشرين، بل وشهدت اجتماع التخطيط في سبتمبر ١٩٤٢ والذي صنعت على أساسه القنبلة الذرية التي أسقطت لاحقًا في هيروشيما ونكازاجي.

في منتصف المزرعة تقع بحيرة صناعية متوسطة أضيئت حولها مشاعل يابانية قديمة أفاضفت على المكان طابعًا سحريًا عجيبًا خاصة مع انتشار ألفي شخص تقريبًا مستلقون باسترخاء على فرش من الحصير، لكن العجيب رغم كونهم جميعًا من الرجال الذين تخطت أعمارهم الخمسين وأكثر لكن بعضهم كان يرتدي ملابس نسائية.

على منصة مرتفعة بعض الشيء وقف رجل بثياب بحر نسائية رغم شعره الرمادي كان المشهد مثير للسخرية لكن الرجل بدا شديد الأهمية حيث كانت عيون الجميع متعلقة به كأنها حالة من الخشوع وهو يقول:

- سيكون النظام العالمي الجديد عبارة عن عالم واحد وحكومة وحدة واحدة، كما أن النظام المالي والاقتصادي في ظل هذه الحكومة على شكل نظام إقطاعي كما كان في العصور الوسطى.

كما أن عدد السكان في العالم سيكون محدودًا بسبب القيود المفروضة على عدد الأطفال في الأسرة، كما أنه وبسبب الأمراض والحروب والمجاعات المفتعلة سوف يتم تحديد عدد السكان حتى ٢ مليار نسمة سيكون معظمهم في خدمة الطبقة الحاكمة.

لن تكون هناك طبقة وسطى في النظام العالمي الجديد. فقط الحكام والخدم. جميع القوانين سوف تكون موحدة في إطار النظام القانوني لمحاكم العالم وسيكون هناك ممارسة قانون موحد للقوانين نفسها، وهذه الحكومة العالمية مدعومة بقوة شرطة واحدة وعالم عسكري واحد لتنفيذ القوانين في جميع البلدان السابقة حيث لا توجد حدود وطنية.

النظام سوف يكون على أساس دولة الرفاه، وأولئك الذين سيخضعون للقانون سوف تتم مكافئتهم كلٌّ على حسب عمله وكل من لا يتماشى مع القانون أو يظهر أي تمرد مهما كان نوعه فإنه سوف يموت من الجوع ويكون عرضة للقتل ودون محاكمة.

انطلق تصفيق حار من الحضور مع جملته والتي بدت كأنها ختام لمحاضرة طويلة استنفذ الرجل فيها طاقة كبيرة فارتشف كأس من النبيذ كان أمامه قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة رضى قبل أن تلتقي عيناه بأحد الأشخاص القريبين من المنصة فاقترب الرجل منه والذي لم يكن سوى مارك أنطوني، تبادل الرجلان التحية قبل أن يميل الرجل ذو الملابس النسائية على أذن مارك قائلًا:

ـ اتبعني على المخيم فهناك من يريد مقابلتك هناك.

هز مارك رأسه موافقًا دون أي تعليق.

بعد أقل من عشر دقائق كان مارك يقف في بهو مربع متسع أنيق جدًا مزين بعدد كبير من التحف لكن أبرزها كان تمثالًا معدنيًا لطائر البومة، استوقف نظره للحظات قبل أن يسمع صوتًا من خلفه يقول:

ـ إنها «مولاك» هي ما يجب أن يكون عليه أعضاء النادي من الحكمة والقدرة على الرؤية في الظلام.

هز مارك رأسه مبديًا إعجابه بحديث الرجل صاحب الملابس النسائية الذي قال مردفًا:

ـ مرحبًا بك في مخيم ماندولاي.

ابتسم مارك بغبطة وقال:

ـ إنه لشرف لي يا سيدي.

ربط الرجل على كتفه وقال:

ـ اتبعني يا مارك.

عبر ممر ضيق طويل سار مارك خلف الرجل متفحصًا تلك الملابس النسائية الفاضحة التي يرتديها رجل بمكانته، ولكن الأمر لم يكن مفاجأة لمارك فهو قد سمع كثيرًا عن حفلات الشذوذ التي تتم بين أروقة تلك المزرعة، بل هو يعلم ما هو أبشع من ذلك من تضحيات بشرية تقدم كقرابين وقد شهد منها بعض الشيء الليلة عند ذلك التمثال الضخم للبومة المصنوع من الفولاذ بالقرب من البحيرة، رغم أن معلومة التضحية البشرية بالأطفال ليست جديدة عليه حقيقة فهو على علم بالأطفال اليهود اليمنيين الذين تم اختطافهم منذ

سنوات لهذه المسألة، لكنه شعر بالغثيان والقشعريرة وهو يرى بعينيه هذا الطقس البشع فمن سمع ليس كمن رأى!

ما كان دائمًا يشغل باله كيف لليهود المشاركون في النادي أن يسمحوا بحدوث مثل هذه الطقوس في أطفال آخرين من اليهود!

هو أن الباشكيناز هم فقط من لهم الحق في دخول النادي وأطفال اليمنيين ليسوا باشكيناز، ولكن هل هذا مبرر أخلاقي لهم؟!

رغم أفكاره المتضاربة لكن هذا لم يمنعه من شعور النشوة العارمة بدخوله لهذا النادي وليس هذا فقط بل هو الآن يسير بين أروقة مخيم ماندولاي شديد الحراسة والذي يمنع دخوله لغير صفوة الصفوة الذين يتربعون على قمة تلك الجماعة وبالتالي على حكم العالم.

دلف الرجل إلى حجرة ذات باب مصفح وهو يشير إلى مارك ليتبعه.

كانت غرفة مستطيلة ذات اضاءة خافتة مصممة بشكل معين بحيث تكون موجهة إلى المقعد الوحيد الخالي والذي أشار الرجل ل مارك أن يجلس عليه كان المقعد على مسافة عدة أمتار عن طاولة مستديرة جلس خلفها رجلان لم يستطع مارك معرفة هويتهما أو اختراق تلك الظلمة المقصودة لإخفاء هويتهما.

قال أحد الرجلين:

- مرحبًا بك مارك أنطوني في بوهمين جورف.
- شرف عظيم لي هذه الثقة.

قال الرجل ذو الملابس النسائية والذي ظل واقفًا:

ـ إن شعارنا هنا السرية يا مارك السرية فقط.

هز مارك رأيه موافقًا وقال:

ـ أعلم يا سيدي... أعلم.

قال الرجل المجهول صاحب الصوت:

ـ هل تعلم لماذا اخترنا شعار البومة مولك؟

ـ رمزًا للحكمة ورؤية ما لا يمكن لغيركم رؤيته!

ضحك الرجل وقال:

ـ يبدو أن جورج لم يعلمك كل شيء... أليس كذلك يا جورج؟!

احمرت وجنتا الرجل ذو الملابس النسائية خجلًا وقال:

ـ لم يكن هناك متسع من الوقت يا سيدي.

ـ حسنًا اسمع يا مارك، تقول الأسطورة إن القديس يوحنا عانى الموت على يد ملك بوهيميا بدلًا من إفشاء أسرار مذهبه للملك، لذلك فالتمثال يرمز إلى السرية أيضًا منذ زمن طويل، كما أن الجملة المنقوشة على بوابة المزرعة تعني أن من بالداخل لا يخشى الخسارة والهزات الموجودة بالخارج.

سمع مارك تنهيدة الرجل الذي عاد فاستطرد حديثه قائلًا:

- والآن علينا الحديث في موضوعنا الرئيسي لهذه الليلة، نحن نعلم أن مركزك هو المسؤول عن قضية الضابط النازي وهذا السر القديم.
- نعم يا سيدي لكننا واجهنا بعض العقبات التي حالت دون نجاح المهمة حتى الآن!

قالها مارك بنبرة خجولة، في حين قال الرجل غاضبًا:

- لا مجال للفشل هنا يا مارك لا مجال فما تراه حولك الآن كله وما مر منذ قرنين من الزمان هو استعداد لهذا اليوم وقد صنعنا كل ما يجعل العالم مستعد لتفتح أجارتا أبوابها.

نظر مارك إلى الأرض وهو يشعر بالتأنيب من رجل حتى لا يستطيع تبين ملامحه لكنه حتمًا شخص ليس بالعادي أبدًا.

سيد مارك هذا العالم يجب أن يكون له حكومة واحدة يتوج على رأسها شخص واحد هذا الشخص كلنا بانتظاره وليس من العدل بشيء أن يكون الألمان في النهاية هم من يصلون إليه فإذا خرج كانوا هم على رأس السلطة العالمية.

- قالها الرجل المجهول الآخر بنبرة هادئة.

قال مارك:

- إننا في طريقنا لاستلام المعلومات من المصريين لقد نجحت خطتنا في الضغط عليهم لكن المشكلة تكمن في الضابط المصري الذي كان مكلفًا بالعملية ومعه رجلين

آخرين فهما يصران على معرفة تلك المعلومات... والنقطة الثانية ظهور طرف غامض بالمشهد لم نعرفه حتى الآن!

قال الرجل الأول متعجبًا:

ـ طرف؟! أي طرف؟!

قال الرجل الثاني

ـ كل الأطراف تعمل لصالحنا فمن هذا الطرف الغامض؟!

ساد صمت لبضع دقائق قبل أن يقطعه جورج قائلًا:

ـ يبدو أنه تكرار لما حدث في ١٩٤٧

كانت جملة جورج كأنها صاعقة هبطت فجأة على رؤوس الجميع.

القاهرة - 2017

ـ لقد ارتكبت جريمة ستكلفني عملي ومستقبلي، لكنني لم أجد غيرك لألجأ إليه الآن لثقتي بك.

رفعت هدير عينيها عن أوراق الفوتوغرافيا التي أمسكت بها لتنظر بعينيها البنيتين إلى وجه فريد الذي جعلها في دهشة عارمة، فلامحه الصارمة قد استحالت إلى ملامح رقيقة هادئة، إنها تقف الآن أمام شخص آخر غير من اعتادت رؤيته!

كان فريد وهدير يقفان أمام جهاز كتلك المستخدمة في قراءة الأشعة الطبية وبيديها عدة أوراق مطبوعة على أوراق الفوتوغرافيا، كان فريد قد قدمها لها منذ دقائق، لكن الغريب هي تلك المقدمة التي نطق بها منذ لحظات.

رغم عملها بمراكز البحوث المتعلقة بجهات أمنية حساسة ومعرفتها لأشخاص وضباط كثيرون كان فريد يمثل بالنسبة لها

نموذجًا منفردًا فهو شخصية صارمة قاسية فيما يخص عمله ورغم ذلك كانت ترى بعيني الأنثى بداخله شخصًا آخر مختلفًا!

لكنها لم تكن تتوقع أبدًا ذلك الشخص الذي دخل عليها منذ دقائق!

شخص متوتر ذو ملامح طيبة تلاشت تلك الصرامة في نظراته القاسية!

خاصة وأن زيارته كانت بمكان عملها الأمني وكل الوجوه هنا تكون واجمة جامدة بلا تعابير كعادة ضباط المخابرات.

ـ لا أفهم ماذا تريد تحديدًا؟!

هكذا بادرته هدير بالسؤال، قبل أن يسحب مقعد متحرك على دواليب صغيرة وقال بعد زفرة عميقة:

ـ أريدك أن تخبريني بما في تلك الصور فقط، لكن بشكل شخصي وسري للغاية.

رفعت حاجبيها مندهشة قبل أن تغمز بعينيها وابتسامة على جانب شفتيها:

ـ ومنذ متى عملنا ليس سريًّا؟!

اعتدل فريد في مقعده وقال بهدوء:

ـ هذه المرة مختلفة تمامًا يا عزيزتي فالأمر شخصي وليس له علاقة بالجهاز.

ارتفع حاجباها دهشة وقالت:

ـ لكنها نفس الأوراق المستخدمة بالجهاز كما أن المظروف عليه شعار الجهاز؟!

ـ حسنًا أنا أثق بك حقا، لقد سرقت هذه الأوراق من قضية تم إيقاف العمل فيها.

فغرت هدير فاها وهي تنظر إليه، الآن فهمت سبب مقدمته الأولى.

ـ إن كنتِ تخشين العواقب فيمكنك الرفض بسهولة ودون أي ضغينة ولكن فقط ليبقى الأمر سرًا؟

قالها فريد وهو يتابع تقاسيم وجهها التي أخذت في التوتر، فهي لا تعرف حقًّا بماذا تجيب!

صمتت هدير كثيرًا فما يطلبه فريد أمر خطير أن تم اكتشافه، وفي نفس الوقت لا يمكنها خزلان فريد لشيء ما بداخلها!

زفرت هدير أخيرًا وقالت:

ـ حسنا.

تنهد فريد بارتياح لقد كان اختياره لدكتورة هدير صائبا، فبعد مجازفته بسرقة المظروف وجد مشكلة حقيقية، جزء كبير مما وجده كان عبارة عن تقارير طبية وكيميائية، لم يكن أمامه سوى هدير ليراهن عليها.

تفحصت هدير الأوراق لدقائق قبل أن تقول:

ـ إن ما بين يدي عبارة عن نتائج لعدة تجارب طبية!

ـ عما تدور هذه التجارب؟

مطت شفتيها وقالت:

ـ لا أعلم تحديدًا فيجب على أولًا فحص جميع الأوراق وترتيبها وهذا قد يلزمه بعض الوقت.

نهض فريد من مجلسه وقال:

ـ حسنًا لك كل الوقت لتخبريني بما توصلت إليه.

تابعته هدير وهو يغلق باب المعمل خلفه، قبل أن تنظر إلى الأوراق وتغمغم قائلة:

ـ ترى ما الذي يخفيه عني حتى يأتي إليَّ بكل تلك الوداعة!

القاهرة - 2017

كان الصمت يخيم على صالة شقة معتز والثلاثة يجلسون على مقاعدهم ساهمين كأن على رؤوسهم الطير محلقة.

فما ذكره فريد لم يكن يعني سوى شيء واحد فقط، وهو دخول طرف جديد للصراع، طرف خطير جدًا لأنه مجهول.

قطع مختار هذا الصمت قائلًا:

- ولكن كيف لك أن تتأكد بان ما تقوله حقيقي؟!

زفر فريد بشدة وقال:

- صدقني كم اتمنى ألا أكون على صواب هذه المرة لكن ما أخبرتكما به حقيقي فعلا، فالسلاح الذي تركه الرجل أثناء مطاردته لي ومعتز ليس له مثيل بين كل الأسلحة المعروفة مما يعني أنه لا يعود لاجهزة من دولة أخرى!

فرك معتز ذقنه بأصبعيه قبل أن يقول:

- ربما هو سلاح سري فدائمًا ما نسمع عن أسلحة سرية لدى أجهزة المخابرات وبعض جيوش العالم!

هز مختار رأسه مصدقا على كلام معتز في حين قال فريد:

- كان هذا الإحتمال الأقوى لكن بفحص الرصاصات المستخدمة تبين أنها مصنوعة من مواد ليست معروفة على سطح الأرض كما أكد لي خبراء الجهاز.
- لكن يمكن أن تكون في باطن الأرض السحيق!

قال مختار جملته وهو يشرد بذهنه، في حين قال فريد:

- لا أدري لكن هذا له تفسير واحد فقط أن من بالسيارة أخطر ما قد نواجهه.
- ألم تستطع الوصول إلى السيارة عبر لوحاتها؟!
- بالطبع لم تفتني تلك النقطة لكن العجيب وما لفت نظري في السيارة أثناء فرارها شيئان؛ الأول أن السيارة لم يكن لها صوت للمحرك حتى وهي تسرع برغم إصابة الإطار مما يصعب عملية السير.

النقطة الثانية لا توجد لوحات ولا حتى علامة ماركة تجاربة للشركة المصنعة!

- إذا كانت هكذا والسيارة لنفترض غير مصرية فكيف دخلت إلى مصر كذلك السلاح؟!

قالها معتز متعجبًا، في حين مط فريد شفتيه وقال:

- لا أعلم تحديدًا فدخول السلاح ممكن عبر حقيبة دبلوماسية مثلا أو تهريبه عبر الحدود المضطربة لصغر حجمه لكن السيارة صعب جدًا.
- أنا أعلم من أين أتت.

نظرا كليهما إلى مختار في دهشة وهو يتحسس جرحه ويقول:

- إنها قادمة من أجارتا يا سادة.

رفع فريد حاجبيه دهشة قبل أن يقول:

- هل تعني أنها اتت من القطب الجنوبي إلى هنا؟!

هز مختار رأسه نفيًا وقال:

- بل داخل مصر.
- وكيف ذلك؟
- ألم يتساءل أحدكما عن سبب اختيار أربيرت هايم لمصر تحديدًا؟!

قال معتز متعجبًا:

- من المعروف أن أغلب النازيين الذين فروا كانت وجهتهم الرئيسية أمريكا الجنوبية، وهذا ما كان مكشوفا للمطاردين أما مصر فكانت مخبأ جيد لأنها ليست بحسبان الباحثين عنهم!

- هذا صحيح نوعًا ما لكن الأمر الأهم بالنسبة لأربيرت هايم كان الوصول إلى اصدقاءه ولهذا اختار كان أمامه بضع خيارات كلها مستحيلة تقريبًا ما عدا واحد.

قال فريد:

- هل يمكنك التوضيح أكثر؟!

ابتسم مختار وقال:

- من ضمن ما عثرت عليه كانت ورقة أجبرني والدي على التخلص منها فورا، كانت عبارة عن خارطة مرسومة باليد توضح خمس نقاط بعينها إحدى هذه النقاط كانت بمصر!
- وماذا من المفترض أن تعني هذه النقاط؟!

قالها فريد متعجبًا، فقفز معتز من مكانه ليلتقط هاتفه الذكي ويداعب لوحته سريعًا ليقول:

- تعني الخمس فتحات المؤدية للأرض المجوفة.

هز مختار رأسه موافقًا وقال:

- بالضبط تماما، ولأن الأربعة الأخرى من المستحيل لرجل مطارد الوصول إليها كان الحل الأمثل اختيار مصر فمنها مخبأ مثالي كما أنه سيكون قريب من مدخله إلى عالمه.

اسمحا لي إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يذهب إلى هناك بدلًا من قضاء زهاء ثلاثون عامًا كمطارد؟!

هز مختار رأسه موافقًا وقال:

ـ هذا صحيح نظريا، لكن المشكلة الكبرى كانت أن مكان الدخول في مصر مختفي تمامًا وغير محدد بالضبط، ولكن الرجل في آخر أيامه كان قد اقترب كثيرًا من هدفه.

تساءل معتز قائلًا:

ـ وكيف هذا؟

ـ لقد أخبرتكما سابقا أن ما دفعني للاهتمام بالأمر كانت مجموعة من الصور التقطها من غرفته كانت كلها لنقطة واحدة فقط، لقد كان الرجل يبحث عن بوابة العبور.

قال فريد:

ـ يبدو يامختار أنك ما زلت تحتفظ بالكث.

لم يكمل فريد جملته عندما تصاعد رنين هاتفه الجوال فالتقطه بسرعة وما أن قرأ ذلك الاسم على شاشته حتى نهض مبتعدا ليجري حديثًا مقتضبًا ثم يعود إلى جلسته السابقة وسط دهشة معتز ومختار الذي قال محاولًا تجاهل سر المكالمة الغامضة:

ـ كما أخبرتكما سابقا كان يجب أن يظل كل شيء سريًا لولا تصاعد الأحداث ما كنت لأبوح بكل هذه المعلومات، فكما علمتما معنى أن يكشف هذا السر للعالم!

هز معتز رأسه موافقًا وقال:

ـ هذا حقيقي فمعناه فتح أبواب الجحيم.

ساد الصمت مرة أخرى قبل أن يقول فريد متسائلًا:

ـ ولكن أين ذلك المدخل الموجود بمصر؟

قال مختار:

ـ أسفل الهرم.

ـ شعر كل من معتز وفريد وكأن صاعقة هبطت من السماء فجأة على رأسيهما!

وللحظات عجزا عن النطق تمامًا قبل أن يستطيع فريد أن يقول:

ـ إذن هم أقرب مما نتخيل؟!

هز مختار رأسه وقال:

ـ لهذا يجب ألا نثير حفيظتهم وإخراجهم عن صمتهم مهما حدث فنحن لا نعلم ماذا نواجه حقيقة!

لم تمض دقائق حتى سمعوا طرقًا على الباب فتبادلوا نظرات القلق إلا فريد الذي ابتسم مطمئنًا وأشار لمعتز أن يقوم بفتح الباب دون أن يخشى وقال:

ـ هذا ضيف مهم.

تنهد معتز بارتياح ليفتح الباب، وما أن فتحه حتى وجد أمامه هدير ببشرتها البيضاء وشعرها الكاستنائي منسدلا على كتفيها وعينيها البنيتين.

ـ هل السيد فريد موجود؟

تنحى معتز جانبًا ليسمح لها بالولوج دون أن ينبث ببنت شفاه.

استقبلها فريد مرحبًا وهو يقدم لها مقعدا للجلوس

تفحصت هدير الرجال الثلاثة في قلق وهي تضم حقيبة يدها إلى صدرها، فابتسم فريد قائلًا:

ـ أقدم لكي المستشار مختار الشيمي والدكتور الجامعي معتز السخاوي هما أهلا للثقة لا تقلقي.

شعرت هدير بالارتياح قليلًا مع نبرة فريد المطمئنة في حين أردف الأخير قائلًا لمعتز ومختار:

ـ عليكما ألا تقلقا من هدير فأنا من دعوتها للحضور عبر الهاتف منذ دقائق وستفهمون السبب حالًا.

اعتدل فريد في جلسته قبل أن يبدأ في الحديث وسط ذهول الجميع وعلى رأسهم هدير التي لم تكن تعلم أي شيء عما حدث.

تناول ديفيد هاتفه النقال ليجيب على مكالمة مارك أنطوني قائلًا:

ـ نعم سيد مارك؟

ـ .....

ـ حسنًا علم وينفذ حالًا.

بعد هذه المكالمة المقتضبة داعب ديفيد سريعًا لوحة هاتفه ليرسل رسالة الكترونية لشخص ما وقد احتدت ملامحه وصارت أكثر صرامة وهو يغمغم قائلًا:

ـ لننهي الأمر الآن.

في هذه اللحظة سمع ديفيد طرقات على باب غرفته بالمنزل الأمن فقال:

ـ ادخل جوزيف.

فتح الباب ليدخل شاب طويل عريض المنكبين اشقر الشعر وقد عقصه خلف رأسه على شكل ذيل الحصان ويحمل في يده مظروفًا ضخمًا قائلًا:

ـ لقد وصلت التقارير من مركز سيمون فيزنتال وكذلك تقارير الموساد.

تناول ديفيد المظروف وألقى به جانبًا وقال:

ـ وإلى ماذا توصلوا؟

مط جوزيف شفتيه وقال:

ـ لا شيء جديد غير ما نعرفه مسبقًا، إلا أنهم يؤكدون أن هؤلاء المصريون لديهم المزيد حتمًا.

هز ديفيد رأسه موافقًا وقال:

ـ ولهذا سأحصل عليه والأن.

تردد جوزيف قليلا، فلاحظ ديفيد تردده فقال متعجبًا:

ـ ماذا هناك ياجو؟

اقترب جوزيف من ديفيد وجذب مقعد جلس عليه وقال:

ـ سيدي أعلم أن ما أقوله لا يصح في عملنا لكنك عودتني على الصداقة؟

زفر ديغيد بنفاذ صبر وقال:

ـ هات ما عندك ياجوزيف.

تنحنح جوزيف وقال:

- إنني احاول فهم ما يحدث منذ بداية هذه المهمة وهناك أمور تحيرني بحق!

اعتدل ديفيد وقال:

- مثل ماذا؟

- يعني مثلا كل الأدلة تشير إلى القطب الجنوبي وهناك أكثر من ثلاثون دولة لديها مراكز أبحاث هناك، وكلهم يستطيعون مساعدتنا، فلماذا كل هذه المخاطرات والسعي خلف هؤلاء المصريين؟!

ابتسم ديفيد وقال:

- لأن هذه المراكز البحثية لم تستطيع الوصول إلى ما نريد هذا أولًا... أما ثانيًا أي مجازفة بالتدخل والبحث المباشر قد تكلفنا الكثير جدا، فنحن لا نعلم تحديدًا مدى ما نواجه من ناحية والناحية الأخرى أثبتت التجربة إنهم أخطر مما نتخيل!

رفع جوزيف حاجبيه في دهشة عارمة وقال:

- تجربة!

هز ديفيد رأسه موافقًا وقال ساخرًا:

- لو أنك تقوم بعملك جيدًا لعلمت أن الأمريكيين فعلوها سابقًا لكنهم فشلوا فشلا ذريعا.

قال جوزيف مندهشًا:

ـ وكيف ذلك؟!

أشعل ديفيد سيجارة استنشق دخانها بعمق قبل أن تتصاعد من انفه سحابة من الدخان مأنه تنين عجوز، وقال:

ـ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ اختفت فجاة معظم الغواصات الألمانية... فقط اختفت تمامًا وكأنها تلاشت إلى العدم، ووقتها كان من المعروف تمامًا أن هتلر لم يمت ولم ينتحر كما أشيع وهو نفس ما أعلنه وقتها كلا من ستالين وايزنهاور، لكن كان في اعتقادهم أنه فر إلى الأرجنتين، لكن الحقيقة التي اكتشفها الجميع لاحقًا أن الأرجنتين كانت محطة فقط للتوجه للقطب الجنوبي وبالمصادفة وعلى سواحل الأرجنتين أيضًا سلم قائد إحدى غواصات النازيين نفسها، وفي التحقيقات لفت النظر لأول مرة أن الألمان كان لديهم مشاريعهم في القطب الجنوبي، وعليه وفي ١٩٤٧ أرسلت أمريكا بعض قواتها بقيادة ريتشارد بيرو والذي ذهب بغطرسة الأمريكيين وغرورهم الذي اكتسبوه بعد الحرب ودون أن يعلم أنه يكشف سرًا من أخطر أسرار التاريخ قال لصحفيين سألوه عن سبب الذهاب للقطب فقال بثقة وصلت إلى حد الغرور» أنها مهمة عسكرية».

كانت مهمته تستوجب أن يبقى في القطب ثمانية شهور كاملة، إلا أنه عاد بعد اسابيع قليلة يلملم أذيال الخيبة والهزيمة على أيدي الألمان.

جحظت عينا جوزيف متعجبًا وقال وهو فاغرًا فاهه:

ـ ألم تنته الحرب في ١٩٤٥ م

هز ديفيد رأسه نفيًا وقال:

ـ هذا ما أصرينا على التسويق له طوال هذه السنوات حتى شككنا في قوى ريتشارد بيرو العقلية عندما عاد مرتعدًا كهرة ترتجف تحت أمطار غزيرة.

ـ لكن نحن كنا نعلم جيدًا ماذا يفعل الألمان هناك.

ـ لماذا تركهم العالم وقتها، فهذا أمر مريب!؟

ضحك ديفيد وقال:

ـ بل هو المطلوب يا عزيزي، فنحن أو الألمان أو الأمريكان كلنا هدفنا العثور على ملك مملكة داوود، وما المانع أن كان الألمان يبحثون فإذا وصلوا إليه كان بها وأن لم يصلوا إليه فسوف يظهر عاجلا أم آجلا ليجدنا نحن قد مهدنا له الدنيا لحكم الغوييم.

قال جوزيف بحيرة:

ـ إن كان الأمر كذلك فما الحكمة من مهمتنا كلها إذا كنا ننتظر عثور الألمان عليه؟!

اكتست ملامح ديفيد بالجدية وقال:

ـ المشكلة أن الألمان اختفوا وقطعوا الخيط الذي كان يربطنا بأجارتا وعليه كان يجب أن نقوم نحن بالبحث بأنفسنا، وكان يلزمنا طرف خيط، خاصة بعد أن أصبح العالم مؤهلا كليا لظهور مسيا.

قال ديفيد جملته الأخيرة وصمت تمامًا وعقله كله يتوجه عبر آلاف الأميال هناك إلى مصر ولسان حاله يقول «ياإلهي مصر مرة أخرى كل شيء يخص مملكة الرب يرتبط بطريقة أو بأخرى بهذه الأرض! هل يمكن أن تكون مصادفة؟!

كيهودي متدين كان يريد وبشدة أن يأتي المنتظر.

القاهرة - 2017

كان موضوع المايكروفيلم مثيرًا لدهشة الجميع، فسيطرت عليهم حالة من الذهول وفريد يقول:

ـ هذه هي الحقيقة، لقد احتفظ أربيرت هاييم طوال هذه السنوات بكل ما لديه على مايكروفيلم دقيق مخبأ بعناية أسفل حجر الخاتم!

قال معتز وهو في حالة ذهول:

ـ لهذا كنت مصر على الحصول على هذا الخاتم من دوما؟!

ضحك فريد وقال:

ـ ألم أخبرك أن التاريخ ليس حكرا عليك ياصديقي، فأنا أيضًا لدي جزء من التاريخ لا يثير اهتمامك، فكل قضيتنا تدور في فترة الحرب العالمية وهي نفس الفترة التي استخدمت فيها أجهزة المخابرات تقنيات كانت الأحدث

في وقتها ومن ضمنها المايكروفيلم، والحقيقة لقد كانت مغامرة فرغم شكي في حجر الخاتم الذي بدا كبير نوعًا ما إلا أنني لم أتوقع أن أكون مصيبًا تمامًا، ولحسن الحظ إنني اكتشفت المايكروفيلم بعد القرار المفاجيء بوقف التحقيق، وهنا شعرت أن الأمر أكبر كثيرًا من مجرد عملية مخابراتية عادية فقمت بتحميض الفيلم وطباعته في سرية، لكن كانت المشكلة غير اللغة هي تلك التقارير الطبية مما اضطرني للجوء إلى هدير لثقتي بها، وها هي الآن هنا لتوضح لنا ما وجدته.

تنحنحت هدير متوترة بعض الشيء قبل أن تمسك بتلابيب جأشها وتقول:

- مما فهمته من روايتكم العجيبة أن السر الذي يسعى الجميع خلفه منقسم إلى شقين أحدهما أجارتا كما اسميتموها، وهذا ما عكفتم عليه جميعًا، لكن الشطر الثاني ربما يعني الكثير ولو أنني في بادئ الأمر لم أع أهميته حتى هذه الساعة.

نظروا إليها في تعجب واضح حتى قال معتز:

- هات ما عندك لقد نجحت في جذب اهتمامنا حقا.
- مما وجدته في المايكروفيلم فالألمان كانوا يعملون على خطين متوازيين أولهما محاولة الوصول إلى أجارتا والتي تؤكد الأوراق حقيقة أنهم حتى كتابة الأوراق لم يكونوا قد حددوا مكانها تمامًا رغم اقترابهم منها بشدة.

هز فريد رأسه موافقًا وقال:

ـ هذا حقيقي.

ابتسمت هدير برقة وقالت:

ـ أما الشطر الثاني فقد كان تحسبًا لـ.

لم تكمل هدير جملتها عندما سمعوا صوت انفجار لينظروا فيجدوا أنا باب الشقة قد سقط وظهر أمامهم أربعة رجال ملثمون وبأيديهم بنادق آلية صوبت فوهاتها إلى الأربعة الذين سقطت قلوبهم بين أقدامهم فجأة.

كان المشهد بقدر ماهو مفاجيء بقدر ما هو مبهم للجميع، إلا أن رجلًا أربعيني ربع القامة أصلع الرأس يضع نظارة شمسية داكنة لا تظهر عينيه، على بزة رمادية.

نظر الجميع إلى الرجل في دهشة وحالة من الزعر أصابت كلا من معتز ومختار وهدير التي التصق كتفها في كتف فريد كأنها تحتمي به فأمسك بكفها وضغط عليها كأنما يبث لها الطمأنينة.

تفحص الرجل الوجوه الأربعة قبل أن يخلع نظارته فتظهر عينيه ضيقتين ونظراته مخيفة قبل أن يقترب من فريد قائلًا بلغة عربية ذات لكنة شامية:

ـ هل أنت فريد؟

هز فريد رأسه موافقًا دون أن يجيب، فعقله كله كان موجهًا إلى الفوهات الأربع المصوبة تجاههم، ودراسة الموقف خاصة في تلك المساحة الضيقة لصالة شقة معتز.

ـ أعتقد أنك تعلم سر وجودنا هنا؟

قال فريد:

ـ هل يمكنك أن توضح، وتخبرني من أنتم؟!

ضحك الرجل وهو يقترب من هدير ويتلمس خدها بظهر يده، إلا أن فريد دفع بيد الرجل بعنف مما جعل الفوهات تتجه بحركة آلية إلى فريد الذي بدا متحفزًا، إلا أن إشارة من الرجل جعلت الملثمون الأربعة يخفضون فوهاتهم، وهو يقول:

ـ سيد فريد أما ماذا نريد، فرغم تأكدي من أنك تعي جيدًا عما أتحدث لكنني سأخبرك.

أشعل الرجل سيجارة أجنبية ذات رائحة نفاذة قبل أن ينفخ دخانها في وجه هدير مما جعل فريد يرمقه بنظرة بغض مستعرة، قبل أن يردف الرجل:

ـ نريد كل ما حصلت عليه عن أجارتا.

نفث دخان سيجارته مرة أخرى وقال مستدركًا:

ـ أما من نحن فهذا لن يشكل لديك فارقا ويكفي أن تستشعر ما تواجهه من قرار رؤسائك.

جحظت عينا فريد دهشة عند ذكر قرار وقف التحقيق في القضية.

كان الموقف شديد التعقيد بحق فأربعة رجال أشداء مدججين بالسلاح في مواجهة ثلاثة رجال اثنان منهما غير أنهما مصابان فإنهما يرتعدان خوفا، وامرأة تلتصق به وجسدها ينتفض بشدة!

كل الموقف ضده تمامًا لكنه فجأة ودون تردد قفز لخطوتين ليضع ذراعه القوي حول عنق الرجل ويجذبه خطوة للخلف ومسدسه الذي التقطه أثناء قفزته ملتصق بصدغ الرجل الذي شحب وجهه بشدة فما حدث كان مفاجأة بكل المقاييس جعلت الرجال المسلحون يتوترون بشدة ورئيسهم بين يدي فريد!

قال فريد وهو يشير بمسدسه إليهم أن يفسحوا الطريق لخروجهم من الشقة لكن الرجال ترددوا قليلًا وعيونهم معلقة برئيسهم الذي بدا وجهه محتقنًا بشدة وعضد فريد يعتصر عنقه فقال الرجل أمرًا رجاله بصوته المتحشرج:

ـ أفسحوا الطريق.

تنحى الرجال جانبًا ومعتز ومختار وهدير لا يصدقون أنهم نجوا من هذا الموقف اليائس!

اتجه فريد ناحية الباب بظهره ومسدسه ما زال في صدغ الرجل وما أن اطمأن إلى فرار أصدقائه حتى دفع الرجل بقوة إلى الداخل وأطلق عدة رصاصات عشوائية بالداخل أربكت المسلحين الأربعة بشدة فاستدار إلى الدرج وانطلق مسرعًا ليلحق بزملائه وأذنيه تلطقتان صوت الرجل يأمر رجاله بقتل الجميع!

هبط فريد الدرج في قفزات متتالية مسرعة وصوت طلقات نارية تصطدم من حوله في جميع الاتجاهات.

عند مدخل العقار كان معتز يقترب بسيارته وهدير تدفع الباب الخلفي ليقفز فريد داخلها، ولكن لم تسر السيارة أكثر من عدة

مترات حتى ضغط معتز المكابح بشدة حتى كادت السيارة أن تنقلب كادوا أن يؤنبوه لولا أنهم رأووا تلك السيارة الرباعية الدفع تقطع الطريق عليهم، أنها نفس السيارة التي طاردت معتز وفريد مسبقًا.

صرخ فريد وهو يرى رجلًا يحمل سلاحًا غريبًا ذا فوهة واسعة يوجهه تمامًا إلى السيارة:

- تراجع يا معتز.

حرك معتز عصا السرعات متجهًا إلى الخلف ليتوقف مرة أخرى فجأة وعيناه جاحظتان وهما متعلقتان بمرآته الأمامية ويصرخ:

- يا إلهي!

التفت الجميع ليجدا خلفهم سيارة دفع من ماركة جيب ومن نافذتيها فوهات الأسلحة موجهة إليهم.

كانت حالة أصعب مما تخيله فريد فالشارع الضيق جعلهم حرفيًا محبوسين داخل سيارتهم في انتظار مصيرهم الغامض:

- انظروا هناك...!

نظر الجميع إلى حيث أشار مختار الجالس بالمقعد الأمامي و.

في هذه اللحظة تحديدًا كانت قلوبهم تقفز حرفيًا إلى حلوقهم فما رأوه كان لا يعني سوى شيء واحد فقط.

الموت!

تاريخ ومكان مجهولين

فتح فريد عينيه بصعوبة ودوار يكاد يفتك برأسه، وكل ما يحمله عقله تلك القذيفة التي انطلقت تجاههم قبل أن يدوي انفجار مكتوم تبعه ضوء مبهر أغشى بصره تمامًا و....

انتهى كل شيء فجأة!

ولكن أين أصدقاؤه معتز وهدير ومختار!

أعادت هذه الخاطرة وعيه دفعة واحدة فقفز من مكانه ليجد نفسه في غرفة ناصعة البياض كل ما حوله أبيض الجدران والباب وطأولة مستديرة صغيرة مطلية هي والمقعد أمامها باللون الأبيض، حتى ذلك الفراش الذي وجد نفسه مستلقي عليه كان أبيض!

نهض فريد من فراشه بصعوبة مستكشفًا ذلك المكان المجهول، لقد كانت حجرة مربعة صغيرة مضيئة لكنه لم يستطع تحديد مصدر هذا الضوء.

لاحظ فريد أن ثيابه أيضًا قد تم تغييرها فهو يرتدي قميص أبيض وسروال من نفس اللون.

كان وحيدًا في الحجرة، متثاقلا نهض من فراشه وبقايا دوار بسيط تضرب رأسه محاولًا التوجه إلى الباب، وببعض الصعوبة استطاع الوصول إلى الباب الذي كان أصمًا فلا يوجد أي ريتاج أو موضع لمفتاح، لكنه بمجرد لمسه للباب سمع قرقعة خافتة والباب يتحرك ليفتح تمامًا.

بحذر تحرك فريد إلى الخارج ليجد نفسه في ممر طويل على الجانبين مضاء بلون أزرق هادئ دون مصابيح أو مصدر معروف للإضاءة...

احتار فريد أن كان يذهب إلى اليمين أم اليسار، وفي نهاية المطاف قرر أن ينادي قائلًا:

ـ هييه هل من أحد هنا؟!

تردد صدى صوته في أروقة الممر للحظات قبل أن يسمع صوت مزلاق أحد الأبواب يفتح.

تحفزت جميع عضلاته واستنفر كامل طاقته تحسبا لأي خطر، إلا أنه رفع حاجبيه دهشة عندما رأى هدير بثابها البيضاء وشعرها المنسدل على عاتقيها تغادر إحدى الحجرات:

ـ هدير!

هرع مسرعًا إليها ليجدها مترنحة فيبدو أنها كانت ما زالت تشعر بالدوار.

ـ أين أنا؟!

قالت هدير بصوت متهدج فقال فريد:

ـ لا أعلم تحديدًا ولكن يبدو أننا لسنا مساجين لأن الأبواب مفتوحة.

نظرت حولها بدهشة وهي تقول:

ـ ماذا حدث لنا وماهذا المكان؟!

ـ كل ما أتذكره مهاجمة سيارتنا وبعدها وجدت نفسي هنا!

ـ وأنا كذلك!

قال فريد متوترًا:

ـ ولكن أين معتز ومختار؟!

مطت هدير شفتيها وقالت:

ـ لا أدري هما حتمًا بالقرب من هنا.

ـ هذا حقيقي نحن هنا!

التفتا إلى الخلف حيث مصدر الصوت ليجدا معتز ومختار يقتربان منهما وقد كانا يبدوان بصحة جيدة حتى أن تأثير إصابتهما قد تلاشى.

وقفوا جميعًا حائرين من هذا المكان العجيب للحظات قبل أن يسمعوا صوت أقدام تقترب فتحفزوا جميعًا في حين ارتعدت هدير خوفًا فأحاط ذراع فريد بكتفها مطمئنًا.

وفي نهاية الممر ظهر رجل متوسط الطول أشهب الشعر وخلفه ثلاثة رجال جميعهم يرتدون نفس الملابس البيضاء.

كان على وجه الرجل ذو العينان الزرقاوتين ابتسامة هادئة بثت الطمئنينة في نفوسهم بعض الشيء خاصة وأن الرجال لم يكونوا يحملون سلاحًا.

ـ ها أنتم قد عدتم لوعيكم؟

هزوا روؤسهم موافقين دون أن ينبث أحدهم ببنت شفاه، والرجل يقترب من مختار ومعتز ويقول مبتسمًا:

ـ لقد شفيت إصابتيكما تمامًا.

تبادلا النظرات وهما يتحسسان جرحيهما لتجحظ عينيهما دهشة فلم يكن في أي منهما أي أثر لجراحيهما!

ـ لا أثر للإصابة حقًا!

قالها مختار بدهشة عارمة، فقال الرجل

ـ لقد قام أطباؤنا بعلاجكما.

ـ أين نحن؟!

قالها فريد وهو يرمق الرجل بنظرة متأهبة، لكن الرجل تجاهل نظرات فريد وقال:

ـ ستعرفون كل شيء اتبعوني جميعًا.

بحركة تلقائية سار الرجل عبر الممر وخلفه الأربعة وخلفهم الرجال الثلاثة.

عبر ما يقرب من خمسين مترًا كاملة هي طول الممر ساروا جميعًا قبل أن ينحرفوا يسارا ليجدوا بابًا اقترب منه الرجل ففتح لتظهر

حجرة مربعة صغيرة كانت عبارة عن مصعد ما أن احتشدوا بالمصعد حتى انطلق صاعدا قبل أن يتوقف ليفتح بابه تلقائيا مرة أخرى.

كان أمامهم مباشرة مركبتين غريبتي الشكل والتصميم طلب الرجل منهم أن يركبوا واحدة من تلك المركبات والتي كانت أسطوانية الشكل مقدمتها مخروطية مدببة تشبه إلى حد كبير مقدمة صاروخ متوسط الحجم.

كان بابها المقوس يفتح لأعلى وبها ثلاثة صفوف من المقاعد كل صف يكفي لفردين ولا يوجد موضع لسائق سوى لوحة إلكترونية مضيئة وبمجرد ركوبهم قال الرجل بلغة لم يتعرفوا عليها إلا كلمة واحدة استطاعوا جميعًا فهمها «أجارتا».

انطلقت المركبة بسلاسة ونعومة مثيرة للعجب لتزداد السرعة تدريجيًا قبل أن تنطلق بسرعة رهيبة لمسافة طويلة عبر ممرات كانت كطرق ممهدة لسير المركبات قبل أن تبدأ المركبة في تخفيف سرعتها تدريجيًا وهي تخرج لمكان أشبه بشارع أو أحد الطرق السريعة وعدد كبير من المركبات العجيبة يسبر في جميع الاتجاهات بالإضافة إلى بعض المركبات الطائرة التي استطاعوا رؤيتها عبر غطاء المركبة الشفاف.

كانت نظرات الذهول تقفز من عيونهم جميعًا عندما سمعوا الرجل يقول:

ـ مرحبًا بكم في أجارتا.

نظروا جميعًا إليه ذاهلين!

ـ هل نحن في حلم أم حقيقة؟!

كان معتز أول من تخطى ذهوله عندما ألقى بسؤاله.

قال الرجل:

ـ بل هي حقيقة يا سيد معتز.

ـ هل تعرف اسمي؟!

قالها معتز بدهشة.

فابتسم الرجل قائلًا:

ـ نحن نعرف عنكم الكثير.

قال فريد:

ـ وكيف جئتم بنا إلى هنا؟

كانت السيارة تتوقف تدريجيا أمام مبنى هرمي الشكل ارتفع غطاء المركبة إيذانا بنزولهم.

قادهم الرجل إلى الداخل ليجدوا انفسهم أمام سياج يطل بالأسفل على قاعة ضخمة بها عدد كبير من البشر من النساء والرجال يقومون ببعض الأعمال وما لفت انتباههم إنهم جميعًا شقر!

أشار إليهم الرجل ليتيعونه عبر ممر متعرج سرعان ما وجدوا أنفسهم داخل مصعد أسطواني هبط بهم بسرعة كبيرة قبل أن يتوقف أخيرًا فيقودهم الرجل عبر ممر طويل آخر تتشعب منه عدة ممرات فرعية قبل أن يتوقف أمام باب ضخم طرقه بهدوء قبل أن يفتح الباب.

دخلوا جميعًا إلى قاعة مستديرة يتوسطها مجسم ضخم ما أن وقعت عيونهم عليه حتى قفزت عيونهم من محاجرها.

لقد كان الصليب المعكوف الرمز النازي الأشهر.

تلك الدهشة جعلتهم لم يلحظوا ذلك الكهل الذي اقترب منهم قائلًا:

- مرحبًا بكم.

كان الرجل قصير القامة ملامحه مألوفة لهم بشكل كبير رأسه منحسرة الشعر.

وما أن رآه معتز حتى صرخ قائلًا:

- رباه مستحيل!

نظر إليه الجميع في دهشة لكن دهشتهم أصبحت بركان من الذهول عندما أدى الرجل الذي صحبهم التحية النازية الشهيرة.

لقد كانوا في هذه اللحظة يقفون وجهًا لوجه مع القائد النازي الأسطوري هتلر!

ساد صمت القبور على القاعة فما يرونه مستحيل بكل المقاييس فإذا فرض أن كل ما أشيع عن أنتحاره كان مجرد كذبة فكيف استطاع أن يصل إلى ذلك العمر الذي قد يقترب من المائة عام وهم يرونه رغم علامات الشيب لكنه ذو صحة جيدة جدًا.

!Bacillus f

نظر هتلر إلى الرجل متعجبًا من كلمة هدير، فأومأ الرجل برأسه وقال مبتسمًا:

ـ هذا ما يسمونها به الآن فإنهم لم يكتشفوها إلا منذ بضع سنوات فقط!

قال فريد متعجبًا:

ـ عماذا تتحدثون؟!

قالت هدير بثقة:

ـ هذا هو الشق الثاني من خططهم البحث عن دواء للخلود شيء يشبه إكسير الحياة في الأساطير!

قال معتز مندهشًا:

ـ وهل توصلوا إليه فعلا!

قال فريد وهو يشير إلى هتلر الواقف أمامه بشاربه المضحك مع استثناء لونه الذي أصبح رماديًا:

ـ ها أنت ترى!

قال هتلر لـ هدير متساءلا:

ـ ولكن كيف توصلتي إلى تلك المعلومات؟!

ـ عبر أوراق رجلكم التي أخفاها في مايكروفيلم وكانت تتحدث عن بكتريا اكتشفها علماؤكم في جليد القطب تعوود إلى ٣/٥ مليون سنة اسماها ببكتريا الخلود، حقيقة كان الأمر غامضًا لكن ببحث بسيط على الأنترنت وجدت

أن عالما روسيا أيضًا اكتشفها عام ٢٠٠٩ لكنه إلى الآن لم يستطع التوصل إلى نتائجكم وأن كانت نتائجه مرضية حتى الأن.

ابتسم هتلر وقال:

ـ يبدو أن مستوى ذكاءكم قد تطور كثيرا...

ـ هل يمكنكم إخبارنا عما نحن بصدده هنا؟!

ضحك هتلر وقال:

ـ أنتم ضيوفنا هنا في أجارتا.

ـ هل نحن حقًّا في أجارتا الأسطورية؟!

قالها معتز بحماس في حين خفض هتلر عينيه وقال:

ـ حقيقة لا...انكم في برلين الجديدة فلقد باءت مساعينا للوصول إلى أجارتا بالفشل لكننا لن نيأس.

قال فريد:

ـ إذن فبعد كل هذا لا توجد أجارتا!

قال هتلر بعصبية:

ـ إنها موجودة وسنصل إليها حتما.

قال مختار كاسرا صمته طوال الفترة الماضية قائلًا:

ـ إذن لما كل هذه الجلبة مادام لا أحد قد عثر عليها؟!

دعاهم هتلر للجلوس على مقاعد مريحة مصنوعة من مادة مجهولة وقال:

ـ بعد الحرب كان مشروع أجارتا والخلود أهم مشاريعنا وقد نجحنا بالفعل قبل انتهاء الحرب في بناء مدينتنا الجديدة كما نجح علماؤنا في اكتشاف تلك البكتريا التي تحدثتم عنها، إلا أنهم فشلوا أن تكون دائمة فهي لا تمنع الموت وأن كانت معدلات أعمارنا قد زادت إلى الضعف على الأقل.

ـ كيف وصلنا إلى هنا؟!

قالها فريد الذي بدا متحفزا فقال الرجل الذي صحبهم:

ـ لقد فجرنا قنبلة ضوئية أصابتكم بغيبوبة مؤقتة ثم نقلكم رجالنا إلى هنا.

قال معتز:

ـ ألا تخشون أن نفضح سركم عند عودتنا؟!

قال هتلر:

ـ ومن قال إنكم ستعودون؟

سادت حالة من الوجوم على ملامح الجميع في حين قال فريد:

ـ إذن نحن سجناء هنا؟!

هز هتلر رأسه موافقًا وقال:

ـ أليس هذا أفضل من قتلكم ودفن السر معكم؟!

قال مختار:

ـ ولماذا لم تقتلونا وينتهي كل شيء؟!

ضحك هتلر وقال:

ـ يا عزيزي لقد جنحنا منذ عقود طويلة إلى الصمت والسكون حتى يحين الوقت، فاخترنا الحياة في سلام.

ثم غمز بعينيه قائلًا:

ـ كما أننا لا نريد أن يكشفنا أحد وقتلكم سيثير الكثير...

تبادل الأربعة النظر للحظة قبل أن يقول فريد:

ـ لكننا نرفض أن نسجن هنا!

قال هتلر:

ـ ومن قال أنكم سجناء؟ ستكونون ضيوف معززين لبقية حياتكم ولضمان بقاء سرنا طي الكتمان.

امتقعت وجوههم، وهم يعرفون إنهم قد أصبحوا عالقين في ذلك المكان إلى الأبد، إلا فريد الذي كان له رأي آخر، فبحركة مباغتة هجم على هتلر ليلتقط عنقه بين ذراعيه في وضعية معكوسة جعلت مجرد ضغطة بسيطة كفيلة بكسر عنق الأخير وفريد يقول بسخرية:

ـ أعتقد أن بكتريا الخلود لن تمنع قتلك؟!

توتر الرجل الواقف بشدة وهو يرى زعيمه بين يدي مقاتل محترف ولكن يده تسللت بهدوء إلى حزامه فضغط ضغطة كانت كفيلة بأن يفتح الباب ليظهر عدة رجال مدججين بأسلحة عجيبة.

حركة واحدة وسيموت زعيمكم.

ـ قالها فريد بقسوة وهو يزيد من حدة ضغطه على عنق هتلر الذي تأوه متألما.

ارتبك الرجال للحظات قبل أن يقول الرجل الذي صحبهم مسبقًا عدة كلمات بالألمانية التي لا يجيدها المصريون، فارتفعت فوهات الأسلحة فجأة وضغطوا الزناد لتنطلق أشعتهم تجاه فريد.

كان الأمر واضح تمامًا التصويب على رأس فريد الذي أصابته الأشعة بدقة ليسقط أرضًا مع جسد هتلر العجوز.

جحظت عيون الثلاثة وهم يرون فريد يسقط دون حراك وكل أوصالهم ترتجف بشدة لكن هتلر الذي احتقن وجهه بشدة وهو ينهض واقفًا بعد أن حرره أحد الرجال من بين ذراعي فريد قال:

ـ لا تخافوا لم يمت بعد فما كان لرجالي أن يطلقوا على أشعة قاتلة.

ثم أشار إلى فريد الفاقد الوعي وقال:

ـ لكن صديقكم سيضطرنا لاتخاذ إجراء لم أكن أريد اتخاذه.

لم يتم عبارته حتى هجم الرجال عليهم ليكبلوهم بأكبال بلاستيكية قوية ويقودونهم بعنف في حين تولى رجلين أمر فريد بعد تكبيله جيدًا.

عبر عدة ممرات وجد الأصدقاء أنفسهم مقيدين إلى مقاعد بعددهم... كانت مقاعد ضخمة متصلة بعدة أسلاك وأجهزة حواسب صغيرة لكل مقعد وشاشة عملاقة في صدر الغرفة، كانوا قد وضعوا على رؤوسهم حتى فريد الذي كان ما زال يصارع لاستعادة وعيه خوذًا معدنية متصلة بكابلات سميكة.

كان أمام الشاشة العملاقة رجلًا بدين قصير ذو عوينات طبية على شفتيه ابتسامة شامتة وهو يقترب من لوحة مفاتيح.

صرخت هدير:

ـ ماذا ستفعلون بنا؟!

انفجر الرجل ضاحكًا وضغط زرًا كبيرًا باللوحة لتنتفض أجسادهم فجأة على أثر صدمة كهربائية طالت كل أوصالهم لثبتوا تمامًا وتستسلم أجسادهم.

النهاية

بصعوبة بالغة فتح الجميع أعينهم محاولين بجهد مضنٍ استعادة كامل وعيهم.

حاول فريد أن يحرك ذراعيه وقدميه لكنه فشل ليكتشف أنه مقيد إلى مقعده فالتفت بعنقه ليلحظ جسد هدير على مقعد مجاور له تحاول عبثا تحرير نفسها فقال همسا:

ـ لا تحاولي نحن مكبلين بقوة.

ـ أين أنا؟!

أتى صوت معتز متقطعًا من خلف فريد الذي لم يستطع الالتفات إلى زميله بفعل تلك القيود لكنه قال ساخرًا بصوت مرتفع نوعًا ما:

ـ إننا في الجحيم يا صديقي.

تنبه هتلر والرجال معه لاستعادة الفريق لوعيهم فاقترب الأول من فريد بوجه مستبشر سعيد قائلًا:

ـ أوه أعزائي يبدو أن لكم حظ أن تشاهدوا الأمر معنا!

ـ ماذا يحدث هنا؟!

قالتها هدير بملامح تحمل كل فزع الدنيا وعيناها مثبتتين على شاشة عملاقة مثبتة إلى أحد الجدران تنقل صور جوية لعدد من المناطق على كوكب الأرض.

ضحك هتلر وقال بعبث:

ـ أثناء فقدكم للوعي اجتمع مجلس حكمائنا واتخذ قرارات جديدة.

قال معتز الذي لاحظ الشاشة العملاقة:

ـ أي قرارات تقصد؟!

ابتسم العجوز وغمز بعينيه وقال:

ـ يسعدنا أن تروا عرضنا المثير.

أشار بيديه إشارة مبهمة فاقترب رجلين مدججان بالسلاح توجه أحدهما إلى فريد ليحل قيوده عن مقعده وكذلك اقترب الآخر من هدير لكنهما حافظا على تقييد أيديهما إلى الخلف وكذلك حدث مع الجميع.

أشار هتلر إليهم لينهضوا ويتحركوا باتجاه عدد كبير من الشاشات نقلتهم بقعة واحدة ظللت باللون الأحمر... لكن ما جعل أعين الجميع تجحظ عن آخرها كانت مشهد محدد نقلته شاشة بدت أكبر حجمًا تقع في منتصف الشاشات تمامًا.

ـ ما ظهر على هذه الشاشة كان واضحا جدًا ولا يحتمل أي شك لقد كانت صورة عمودية للهرم الأكبر بالجيزة.

ـ ما الفعل المجنون الذي تنوون فعله أيها الحمقى؟!

قالها مختار الذي بدا مجهدًا بشدة، إلا أن جملته كانت مزيجًا من العصبية والغضب.

ضحك هتلر قبل أن يقول:

ـ لقد بات اكتشاف أمرنا أمرًا محققًا آجلًا أو عاجلًا وفي نفس الوقت لم نستطع العثور على الحلم المفقود أجارتا، لهذا يا سادة.

أشار هتلر بيديه بحركة مسرحية وهو يقول مستعرضًا:

ـ أنتم الآن على موعد مع تجهيز العالم ليخرج سكان أجارتا.

قال فريد وقد استشعر خطورة بالغة في حديث الرجل:

ـ ماذا تقصد أيها الخرف؟!

ضيق هتلر حدقتيه وهو يقول بصوت بدا كفحيح الأفعى:

ـ هذا الخرف سيقود الجنس الجرماني لخلق عالم أفضل يكون في خدمة سيد العالم عندما يقرر هذا، أما هؤلاء الغوغاء فلا سبيل لنجاتهم.

في هذه اللحظة أظهرت الشاشة التي تظهر الهرم صورة مقربة لجسم معدني غريب الشكل مثبت على قمة الهرم، في حين أظهرت شاشة أخرى شكل مجسم لهذا الجسم مصمم بالحاسوب فكان جسم كروي تحيط به مدارات متقاطعة كتلك المعبر عنها في رسم الذرة.

ـ ما هذا الجهاز هل ستفجرون قنبلة إشعاعية من نوع ما؟!

قالتها هدير بعصبية وخوف قد امتزجا بكل خلية من جسدها.

اقترب رجل عجوز أشيب الرأس حاد الملامح دقيق القسمات قصير القامة وقد كان يتابع باهتمام الشاشات فقال:

ـ بل قنبلة طاقة يا سيدتي!

جحظت عينا هدير بشدة وقد شعرت بالأرض تميد بها.

قال ضياء:

ـ ماذا من المفترض أن يعني هذا؟

قالت هدير بصوت متهدج وكأنها تحدث نفسها:

ـ أشعة الموت هذا ما يقصدونه نيكولا تيسلا!

صفق هتلر بطرقة طفولية قائلًا:

ـ أحييكِ سيدتي يبدو أنك على قدر كبير من المعرفة

قال معتز ثائرًا:

ـ عن أي هراء تتحدثون هنا؟

قالت هدير:

ـ أشعة الموت مصطلح يدل على سلاح يصدر جسيمات نظرية أو كهرومغناطيسية يمكن نقلها وتوجيهها بحسب النظريات إلى ٤٠٠ كيلو متر لتقضي على كل كائن حي دون أن تتأثر المباني والمنشآت أو تسبيب أي ضرر إشعاعي كما هو الحال في القنابل الذرية التقليدية أو حتى

الهيدروجينية وأول من وضع لها إطارًا تنفيذيًا يشرحها هو العالم اليوغسلافي نيكولا تيسلا رغم عدة محاولات سابقة.

قال ضياء:

- أنتم ببساطة تريدون إبادة الجميع؟
- بل إبادة جنس أظهر بما لا يدع مجالًا للشك أنه غير صالح للحياة.
- قالها الرجل العجوز

فقال مختار ثائرًا:

- لكن هذه جريمة تخالف كل القوانين والأعراف جريمة ضد الإنسانية؟!

ضحك هتلر ساخرًا:

- بل هي نعمة للبشرية وهذا الكوكب فلن يحيا إلا من استحق الحياة يا سيدي لينعم بأجارتا على الأرض.
- من على نفس الشاشة التي تحمل صورة القنبلة ظهر أسفل الشكل أرقام اخذت تتحرك تنازليًا بشكل بدا متسارعًا

١٠ دقائق... ٩/٥٩....٩/٥٨.

ساد الصمت المكان برمته ما عدا صوت ومضي منتظم يشير إلى تحرك العد التنازلي، كل شيء يشير إلى نهاية محتومة.

- لدي سؤال؟

نظر هتلر إلى فريد مستفهمًا، فقال الأخير:

ـ لماذا مشهد مصر بالذات هو الظاهر هنا على الشاشة؟

قال هتلر وعلى وجهه ابتسامة:

ـ هذه القنبلة التي تراها فاقت كل ما توصل إليه تيسلا فهي أقوى آلاف المرات فعلماؤنا استطاعوا تطوير أبحاث الرجل ولقدسية الهرم بالنسبة للسيد كان هو المكان الأنسب لتمهيد العالم له.

ـ وكذلك هناك سبب علمي مؤكد وهو أن الهرم يتوسط تمامًا قارات العالم القديم فيصبح مدى القنبلة متساويًا في جميع الجهات،

قالها الرجل العجوز.

كانت العيون جميعها متعلقة بالأرقام المتسارعة فلم يلحظ أحدهم يدي فريد اللتين استطاعا التخلص من قيدهما ولم يكن حديثه سوى مماطلة منه، فهو كرجل أمن مدرب استطاع أثناء تكبيله وضع يده بشكل يعطي كفيه مساحة أكبر للحركة مما قلل من شدة قيده فضم أصابع يمناه بشكل طولي للأمام وبصعوبة سحبها على فترات حتى لا يلحظ أحد حركته حتى تحرر تمامًا من قيده.

ودون تردد وكومضة قفز بسرعة ليجذب هتلر من عنقه بقوة جعلت الدماء تتجمد في عروق الأخير وهو يسحبه ليكون ظهر فريد إلى الجدار حتى لا يباغته أحد من الخلف وهو يأمر الجنود بصرامة بوضع أسلحتهم.

تردد الحراس للحظات فالوضع معقد ففريد ليس في مرمى نيرانهم وأي حركة قد يكسر عنق زعيمهم ببساطة، فرغم إكسير الحياة المزعوم، لكن للزمان والعمر قواعده أيضًا.

صرخ الرجل العجوز وعيناه تجحظان في الحراس:

ـ أطيعوا أوامره فورًا.

ألقى الحراس أسلحتهم بسرعة فقال فريد:

ـ حلوا قيودهم.

دون تردد أسرعوا في حل قيود المجموعة بحركة آلية، وما أن شعرت هدير بذراعيها حرتين حتى قفزت إلى جهاز الحاسوب، في حين التقط كل من مختار ومعتز أحد الأسلحة موجهين فوهاتها إلى الجميع ليتراجعوا موسعين المجال لهدير التي أخذت تتعامل بسرعة محاولة إيقاف هذا العد التنازلي.

إن ما تفعلونه عبث فبرنامجنا غير معد لإيقاف العد التنازلي مهما حدث.

قالها الرجل العجوز، فانطلق أنين هتلر عندما زاد فريد ضغطه على عنقه وقال صارخًا:

ـ أكيد هناك طريقة ما وإلا فقدتم زعيمكم الآن.

مط العجوز شفتيه وقال:

ـ دعني أريحك من هذا الأمر.

كانت أصابعه قد تسللت إلى جيب ملابسه لتظهر ممسكة آلة صغيرة تشبه الصاعق الكهربائي الذي يستخدم في أغراض الدفاع عن النفس.

هنا جحظت عينا هتلر عن آخرهما وسط دهشة الجميع و....

انطلقت موجة كهربية كصاعقة انقضت مباشرة على موضع قلب الفوهرر فدفع به فريد إلى الأمام ليرتجف الجسد بشدة قبل أن يسقط جثة مهمدة.

مضت لحظات والأفواه فاغرة والعيون محدقة لا تعي ما حدث تمامًا، حتى صرخ مختار محدثًا الجميع:

ـ لقد قتل الرجل قائدكم هل ستتركونه؟

لم يتحرك أي ممن وجد في الغرفة وكأنهم تماثيل مشيدة في حين انفجر الرجل ضاحكًا وقال:

ـ هل تعتقدون حقًّا أنه هتلر؟!

انتزع سكين حاد وانحنى يشق صدر الجثة لتظهر أسلاك ودوائر كهربية شديدة التعقيد.

ـ إنكم أمام ربوت شديد التطور صنع خصيصًا لضمان ولاء من هم ما زالوا يؤمنون بالنازية أما كل من هم هنا يعلم جيدًا هذه الحقيقة؛ أن هتلر مات قبل أن نتوصل إلى إكسير الحياة وفشلت جميع محاولات إعادته، لهذا صنعنا هذا النموذج لإقناع العامة بأننا أعدناه.

صرخ معتز في دهشة:

ـ لكنه كان يحدثنا ويتفاعل بدقة متناهية.

ضحك الرجل مرة أخرى فظهرت نواجزه صفراء وقال:

ـ أكثر من ستين عامًا من العلم والبحث تقدم لنا هذا وأكثر.

ـ لا يمكن إيقافه ولم يتبق سوى.....

١٠...٩...٨.....٧.....

كانت جملة هدير بمثابة ناقوس خطر انتزع الجميع من دهشتهم فكل شيء يشير إلى النهاية.

النهاية فقط!

كاريزما
للنشر والتوزيع